محمود محمد طه

الرسالة الثانية من الإسلام

الطبعة الخامسة

محمود محمد طه

الرسالة الثانية من الإسلام

الطبعة الخامسة

الاهـــــداء

الى الانســـــــانية !

بشرى ·· وتحية ·

بشرى بأن الله ادخـــر لها من كمال حياة الفكر ، وحياة الشعور ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ·

وتحية للرجل وهو يمتخض ، اليوم ، فى أحشـــائها ، وقد اشتد بها الطلق ، وتنفس صبح الميـــلاد ·

بســـــم الله الرحمن الرحيم

« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى .. فمن يكفـــر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها .. والله سميع عليم .. »

« ومن يسلم وجهه الى الله ، وهو محسن ، فقد استمســـك بالعروة الوثقى .. والى الله عاقبة الأمور .. » ..

صدق الله العظيم ..

مقدمة الطبعة الرابعة

هذه مقدمة الطبعة الرابعة من كتاب « الرسالة الثانية من الاسلام »

.. وهو كتاب قد صدرت طبعته الأولى فى يناير من عام ١٩٦٧ ، الموافق لشهر الله المكرم رمضان من عام ١٣٨٦ .. ولقد لاقى رواجـــا عظيما ، ونجد ان رواجه يزداد كلما تقادم عليه العهد ، ذلك ان الناس قد اخذوا يتفهمونه ، ويتقبلونه ، ويقبلون عليه .. وهذا الكتاب هو ، بالنســـبة للدعوة الجمهورية ، الكتاب الام .. ومع ذلك ، فانه موجز ، اشـــد الأيجـــاز ، ويتطلب شرحاً ، وتفصـــيلا ، وتبيينا ، ليس اليه اليوم مـــن سبيل .. وسيطيب لذلك الوقت عما قـــريب ان شاء الله .. وما اريد فى هذه المقدمة الى شىء من تفصيل يتناول مواضيع الكتاب المختلفة ، وانما اريد بها الى تقرير امر يهمنى تقريره ، بادىء ذى بدء ، وذلك ان الأسلام رسالتان : رسالة اولى قامت على فروع القرآن ، ورســـالة ثانية تقوم على اصوله .. ولقد وقع التفصيل على الرسالة الأولى .. ولاتزال الرسالة الثانية تنتظر التفصيل .. وسيتفق لها ذلك حين يجىء رجلها ، وحـــين تجىء امتها ، وذلك مجىء ليس منه بد .. «كان على ربك حتماً مقضياً» ..

العروة الوثقى

العروة هى المقبض .. او هى اليد التى يحمل بها الاناء .. او هى العقدة فى طرف الحبل التى بها يستوثق القابض على الحبل من قبضـــة الحبل .. فالعروة الوثقى هى مقبض الحبل الوثيق .. والحبل هو الدين .. قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم اعداء ، فالف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته اخواناً .. وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها .. كذلك يبين الله لكم آياته ، لعلكم تهتدون » .. فالحبل هنا هو الاسلام ، وهو القرآن ، وذلك معنى

واحد .. وقد قال المعصوم ، فى حديث يرويه على بن ابى طالب : « الا انها ستكون فتنة !! فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله !! فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم .. هو الفصل ، ليس بالهزل .. من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله .. وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم .. هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه .. هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : انا سمعنا قرآناً عجباً يهدى الى الرشد .. من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى اليه هدى الى صراط مستقيم » .. هذا قول المعصوم .. وهذا الحبل انما تنزل من الله فى اطلاقه الى أرض الناس .. فأوله عندنا ، وآخره عنده تعالى ، فى اطلاقه .. وهذه الصورة محكية ، أجمل حكاية ، فى قوله تعالى ، من مطلع سورة الزخرف : « حم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » وهذا الحبل هو ايضا المسمى بالهدى فى قوله تعالى ، مخاطبا ابليس ، وحواء ، وآدم : « قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. فان هذا الهدى قد تنزل من الله فى اطلاقه الى المهبط الذى هبطه ابليس ، وحواء ، وآدم ، وهو الارض .. ومن ههنا كانت صورة الهدى ، وصورة الحبل عبارة عن أمر واحد ، ذلك الأمر هو القرآن .. والعروة الوثقى التى قلنا عنها انها مقبض الحبل الوثيق انما هى طرف الحبل الذى لامس الارض — أرض الناس — .. وهذا ما يحكيه ظاهر القرآن الذى تعطينا اياه اللغة العربية .. وقد عبر تعالى عنه بقوله : « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .. عبارة لعلكم تعقلون هى التنزل لأرض الناس ، وهذه هى الشريعة .. ولقد تنزل هذا الحبل الوثيق من الاطلاق ، وقد عبر تعالى عن نقطة متنزله من الاطلاق بقوله تعالى : « وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » وقد أشار الى نقطة متنزله من الاطلاق بقوله تعالى : « حم » أشار هنا اشارة فقط ، وهى اشارة فى غاية الرفعة .. وعبر هناك عبارة ، وهى عبارة فى غاية البلاغة .. وبين العبارة والاشارة اختلاف مقدار .. والمعبر عنه ، والمشار اليه ، أمر واحد ، هو الذات .. وانما جاء اختلاف المقدار لضرورة التنزل الى الافهام .

فالعروة الوثقى هى الشريعة .. والحبل الوثيق هو الدين .. وبين الشريعة والدين اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع .. فالشريعة هى القدر من الدين الذى يخاطب الناس — عامة الناس — على قدر عقولهم .. ولقد صدرنا هذه المقدمة بآيتين ، اولاهما : « لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى . فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها .. والله سميع عليم .. » .. العروة

الوثقى هنا الشريعة ، وهى « لا انفصـــام لها » من الدين لمن « يكفـــر بالطاغوت ويؤمن بالله » .. فانها له موسلة ، وموصلة .. هذا شرط عدم انفصامها عن الدين ــ الكفر بالطاغوت ، والايمان بالله .. وهذا يعنى انها منفصمة عن الدين لمن يستمسكون بها بغير كفر بالطاغوت ، وبغير ايمان بالله ، وهو ما عليه حال المســـلمين اليوم .. هذه أولى الآيتين ..

واخراهما « ومن يســـلم وجهه الى الله ، وهو محســـن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى .. والى الله عاقبة الأمور .. » .. وهـــذه الآية فى معنى تلك ، ولكنها تذهب اكثر منها فى توضيح توسيل الشريعة .. جاء فى هذه بقوله : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن » فى مقابلة : « فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله » فى تلك .. وجاء بالفاصلة : « والى الله عاقبة الأمور » ، ليدل على الرجعى بالصعود على الحبل المتنزل من الاطلاق ، حيث كان الانسان ، قبل أن يزل ، ويطرد بســـبب الزلة ، ويبعد ، « قلنا : اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتينكم منى هدى فمن تبـــع هداى فلاخوف عليهم، ولاهم يحزنون » .. وورد ، فى نفس هذا المعنى ، قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أســـفل سافلين * الا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون »..
فالأجر « غير الممنون » يعنى غير المقطوع .. وهو ، من ثم ، « العروة الوثقى، لا انفصام لها » ..

السنة هى الرسالة الثانية :

السنة شريعة وزيادة .. فاذا كانت العروة الوثقى هى الشريعة ، فان السنة أرفع منها .. واذا كان حبل الاسلام متنزلا من الاطلاق الى أرض الناس ، حيث الشريعة ــ حيث مخاطبة الناس على قدر عقولهم ــ فان السنة تقع فوق مستوى عامة الناس .. فالسنة هى شريعة النبى الخاصة به .. هى مخاطبته هو على قدر عقله .. وفرق كبير بين عقله ، وبين عقول عامة الناس .. وهذا نفسه هو الفرق بين السنة والشريعة .. وما الرسالة الثانية الا بعث هذه السنة لتكون شريعة عامة الناس ، وانما كان ذلك ممكنا ، بفضل الله ، ثم بفضل تطور المجتمع البشرى خلال ما يقرب من أربعة عشر قرنا من الزمان .. وحين بشر المعصوم ببعث الاسلام انما بشر به فى معنى بعث السنة ، وليس فى معنى بعث الشريعة .. قال : « بدا الاســـلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدا .. فطوبى للغـــرباء !! قالوا : من الغرباء يا رســـول الله ؟ قال : الذين يحيون سنتى بعد اندثارها » .. ويجب أن يكون واضحـــاً انه لا يعنـــى احياء الشريعة ، وانما يعنى احياء الســـنة .. والسنة ، كمـــا قلنا ، شريعة ، وزيادة .. السنة طريقة .. والطريقة شريعة موكدة ..

السنة ليست خاصة بالنبى

كثيرا مانسمع الفقهاء يقولون : ان هذا العمل خـاص بالنبى .. وهذا خطأ شنيع ، وقد كان له سود العواقب فى تثبيط الناس .. والله تعالى يقول ، على لسـان نبيه : « قل : ان كنتم تحبون الله فاتبعونى ، يحببكم الله » .. ومن ههنا انفتحت الشريعة على السنة ، واصـبح مطلوبا من السالك أن يترقى من الشريعة الى الطريقة .. « السنة » .. بيد أن هذا الترقى لم يكن فرضا مفروضا على عامة الناس ، وانما كان أمرا مندوبا اليه .. وما منعه الا يكون فرضا الا حكم الوقت .. فقـد كانت الفترة الأولى من الدعوة خاصة بأمة المؤمنين .. وكان عمل النبى ، فى خاصة نفسه ، عملا فى مستوى المسلمين .. فلم يكن فى الأمة المسلمة غيره .. والاسلام مرتبة مترقية على الايمان ، وقد ورد تفصيل هـذا فى متن الكتاب ، فليراجع فى موضعه .. والذى يهمنا هنا ان نقرر أن وقتنا الحاضر وقت تتهيأ فيه الأرض لظهور أمة المسلمين .. وهـذه الامة هى امة الرسـالة الثانية .. وشريعتها هى سنة النبى ، لا شريعة الأمة الماضية ، بكل تفاصيلها ، وذلك بفضـل الله ، كما اسلفنا القول ، ثم بفضل تطور المجتمع البشرى خلال هذه المدة الطويلة ، مما جعله مستعدا لتفهم التشريع المتطور من الشريعة الى السنة .. فكأن أرض الناس قـد ارتفعت خلال هذه المدة .. وكأن طرفاً من الحبل قد انطوى من البعد الى القرب .. واصبحت بذلك العروة الوثقى الجديدة أقرب الى الاطلاق من العروة الوثقى القديمة .. وذلك لقرب أرض الناس ـ أعنى مسـتوى فهمهم ـ من الاطلاق ، اذا ما قورن بمستوى الفهم القديم ..

والأمة المسلمة هى التى سماها النبى الكريم بالاخوان ، حين سمى الامة المؤمنة بالأصحاب ، وفى ذلك ورد حديثه المشهور الذى قال فيه : « واشـوقاه لاخوانى الذين لما يأتوا بعد !! قالوا : أولسـنا اخوانك يا رسول الله ؟ قال : بل انتم اصحابى .. واشوقاه لأخوانى الذين لما يأتوا بعد !! قالوا : أولسنا اخوانك يا رسول الله ؟ قال : بل انتم اصحابى .. واشوقاه لأخوانى الذين لما يأتوا بعد !! قالوا : من اخوانك ؟ قال : قـوم يجيئون فى آخر الزمان ، للعامل منهم أجر سبعين منكم !! قالوا : منا ام منهم ؟ قال : بل منكم !! قالوا : لماذا ؟ قال : لانكم تجدون على الخـير اعوانا ، ولايجدون على الخير أعوانا .. » .. وعن الأخوان قال ، فى موضع آخر : « الأنبياء ابناء أم واحـدة » يعنى هم اخوان لانهم جميعا يرضعون من ثدى واحد ، هو ثدى « لا اله الا الله » .. وفى ذلك اشارة الى ان امة المسلمين يكون الناس فيها ، لكمال معـرفتهم بالله ، كلهم انبياء .. وليسوا بانبياء ..

ومما يدحض القول بان السنة خاصة بالنبى قول الله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .. وروح هذه الآية فى عبارة : « من أنفسكم » .. يشير الى أن ما اتصف به النبى من كمالات هو لكم ، اذا اتبعتم طريقه ، لانه من عنصركم ، وليس من عنصر غريب عليكم .. والاختلاف بينكم وبينه اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع .. وقول من يقول بان هذا العمل خاصية من خاصيات النبى يخطىء الحكمة فى ارسال الرسل الى البشر من البشر لا من الملائكة .. فاذا كانت الأرض اليوم ، بكل هذه الطاقة المادية الهائلة ، والتقدم البشرى الرفيع فى وسائل الدنيا ، ثم بكل هذه الحيرة المطبقة على عقول الناس ، وقلوبهم ، انما تتهيا لظهور امة المسلمين عليها ، فقد أصبح واجباً على ورثة الاسلام — على ورثة القرآن — أن يدعوا الى الرسالة الثانية ، تبشيرا بالعهد الجديد الذى أصبحت البشرية تشعر بالحاجة الملحة اليه ، ولكنها تخطىء طريقه ، وانما طريقه فى المصحف ، ولكن المصحف لا ينطق ، وانما ينطق عنه الرجال .. قال تعالى فى ذلك : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » .. ومما تنطق به صدور الذين أوتوا العلم أن طريق العهد الجديد — طريق المسلمين على الأرض — ترسم خط سيره آيات الاصول — الآيات المكية — تلك التى كانت فى العهد الاول منسوخة بآيات الفروع — الآيات المدنية — وانما نسخت آيات الاصول يومئذ لحكم الوقت .. فقد كان الوقت وقت امة المؤمنين .. وآيات الاصول تخاطب امة المسلمين ، وهى امة لم تكن يومئذ .. وانما نسخت آيات الاصول فى معنى انها أرجئت ، وعلق العمل بها فيما يخص التشريع ، الى ان يحين حينها ، ويجىء وقتها ، وهو الوقت الذى نعيش نحن اليوم فى تباليج فجره الصادق .. وانما من ههنا وظفنا انفسنا للتبشير بالرسالة الثانية ..

الرسالة الثانية من الاسلام

الاسلام دين واحد .. وهو دين الله الذى لايرضى غيره .. قال تعالى فيه : « افغير دين الله يبغون ، وله اسلم من فى السموات ، والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون ؟؟ » وهو ، بهذا المعنى انما هو الاستسلام الراضى بالله رباً .. وبالاسلام جاء جميع الانبياء من لدن آدم والى محمد .. قال تعالى فى ذلك : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ان اقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه .. كبر على المشركين ما تدعوهم اليه .. الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب .. » .. « شرع لكم من

الدين » هنا لاتعنى الشرائع وانما تعنى « لا اله الا الله » .. ذلك بأن شرائع الأمم ليست واحدة ، وانمـا هى مختلفة اختلاف مقدار ، وذلك لاختلاف مستوياتها .. وانما « لا اله الا الله » هى الثابتة ، وان كان ثباتها فى مبناها فقط ، وليس فى معناها .. وانما يختلف معناها باختلاف مستويات الرسل .. وهو اختلاف مقدار أيضا .. قال المعصوم فى ثبات مبنى « لا اله الا الله » .. « خـير ما جئت به انا والنبيون مـن قبلى « لا اله الا الله .. » واختلاف شرائع الانبياء الناتج عن اختلاف مستويات اممهم لا يحتاج الى طويل نظر .. ويكفى أن نذكر باختلاف شريعة التزويج بين آدم ومحمد .. فقد كان تزويج الأخ من أخته شريعة اسلامية لدى آدم .. وعندما جاء محمد أصبح الحلال فى هذه الشريعة حراماً .. اكثر من ذلك أصـبح التحريم ينسحب على دوائر أبعد من دائرة الأخت .. قال تعالى فى ذلك : « حـرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، واخـواتكم ، وعماتكم ، وخـالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الاخـت ، وامهاتكم اللاتى ارضعنكم ، واخواتكم من الرضاعة ، وامهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم .. وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم .. وان تجمعـوا بين الأختين ، الا ما قد سلف .. ان الله كان غفورا رحيما » فاذا كان هـذا الاختلاف الشاسع بين الشريعتين سببه اختلاف مستويات الامم ، وهو من غير ادنى ريب كذلك ، فانه من الخطأ الشنيع أن يظن انسان أن الشريعة الاسلامية فى القرن السابع تصلح ، بكل تفاصيلها ، للتطبيق فى القـرن العشرين ، ذلك بأن اختلاف مستوى مجتمع القرن السابع ، عن مستوى مجتمع القرن العشرين ، أمر لا يقبل المقارنة ، ولا يحتاج العارف ليفصل فيه تفصيلا ، وانما هو يتحدث عن نفسه .. فيصبح الأمر عندنا أمام احدى خصلتين : اما أن يكون الاسلام ، كما جاء به المعصوم بين دفتى المصحف ، قادرا على استيعاب طاقات مجتمع القرن العشرين فيتولى توجيهه فى مضمار التشريع ، وفى مضمار الأخلاق ، واما أن تكون قدرته قد نفدت ، وتوقفت عند حد تنظيم مجتمع القرن السابع ، والمجتمعات التى تلته مما هى مثله ، فيكون على بشرية القرن العشرين أن تخرج عنه ، وأن تلتمس حل مشاكلها فى فلسفات اخريات ، وهذا مالا يقول به مسلم .. ومع ذلك فان المسـلمين غير واعين بضرورة تطوير الشريعة .. وهم يظنون أن مشاكل القرن العشرين يمكن أن يسـتوعبها ، وينهض بحلها ، نفس التشريع الذى استوعب ، ونهض بحل مشاكل القرن السابع ، وذلك جهل مفضوح ..

المسلمون يقولون ان الشريعة الاسلامية شريعة كاملة .. وهـذا صحيح .. ولكن كمالها انما هو فى مقدرتها على التطور ، وعلى استيعاب طاقات الحياة الفردية ، والاجتماعية ، وعلى توجيه تلك الحياة فى مدارج

الرقى المستمر ، بالغة مابلغت تلك الحياة الاجتماعية ، والفردية من النشاط ، والحيوية ، والتجديد .. هم يقولون ، عندما يسمعوننا نتحدث عن تطوير الشريعة ، يقولون : الشريعة الاسلامية كاملة ، فهى ليست فى حاجة إلى التطوير ، فانما يتطور الناقص .. وهذا قول بعكس الحق تماما ، فانه انما يتطور الكامل .. فالكمل من العارفين مثلهم الأعلى أن يتخلقوا بما وصف الله تعالى به نفسه حين قال عز من قائل : « كل يوم هو فى شأن » .. فهم يجددون حياة فكرهم ، وحياة شعورهم ، كل يوم .. واليوم عندهم هويوم الله .. وليس هوهنا أربعاً وعشرين ساعة ، وانما هو وحدة « زمنية » التجلى ، وتلك « زمنية » اصغر من الدقيقة ، بل اصغر من الثانية ، بل اصغر من الثالثة .. انها « زمنية » قد تنقسم فيها الثانية الى بليون جزء ، حتى انها لتكاد أن تخرج عن الزمن ، فى المدلول الذى يتصوره العقل للزمن .. فهم قد ينطلقون ، أو قد يحاولون ان ينطلقوا ، مع الله فى ابداء مظاهره لخلقه ، يجددون حياة فكرهم ، وحياة شعورهم بهذه الصورة المستمرة .. هذا هو الكمال .. وليس الكمال التزام صورة واحدة .. فالعشبة الضئيلة التى تنبت فى سفح الجبل ، فتخضر ، وتورق ، وتزهر ، وتثمر ، ثم تلقى ببذرتها فى تربتها ، ثم تصير غثاء تذروه الرياح ، اكمل من الجبل الذى يقف فوقها عاليا متشامخا ، يتحدى هوج العواصف .. ذلكبأن تلك العشبة الضئيلة قد دخلت فى مرحلة متقدمة من مراحل التطور — مرحلة الحياة والموت — مما لم يتشرف الجبل بدخولها ، وانما هو يطمع فيها ، ويطمح اليها ..

وبالمثل ، فان كمال الشريعة الاسلامية انما هو فى كونها جسما حيا ، ناميا ، متطورا ، يواكب تطور الحياة الحية ، النامية ، المتطورة ، ويوجه خطاها ، ويرسم خط سيرها فى منازل القرب من الله ، منزلة ، منزلة .. ولن تنفك الحياة سائرة الى الله فى طريق رجعاها ، فما من ذلك بد .. « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » .. وانما تتم الملاقاة بفضل الله ، ثم بفضل ارشاد الشريعة الاسلامية فى مستوياتها الثلاث : الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة .. وتطور الشريعة ، كما أسلفنا القول ، انما هو انتقال من نص الى نص .. من نص كان هو صاحب الوقت فى القرن السابع فاحكم الى نص اعتبر يومئذ اكبر من الوقت فنسخ .. قال تعالى : « ما ننسخ من آية ، او ننسئها نات بخير منها ، او مثلها .. الم تعلم ان الله على كل شيء قدير ؟ » .. قوله : « ما ننسخ من آية » يعنى : ما نلغى ، ونرفع من حكم آية .. قوله : « او ننسئها » يعنى نؤجل من فعل حكمها .. « نأت بخير منها » يعنى أقرب لفهم الناس ، وادخل فى حكم وقتهم من المنساة .. « او مثلها » يعنى نعيدها ، هى نفسها ، الى الحكم حين يحين وقتها .. فكأن الآيات التى نسخت انما نسخت لحكم الوقت ، فهى مرجاة الى ان يحين حينها .. فاذا حان حينها فقد اصبحت هى صاحبة الوقت ، ويكون لها الحكم ، وتصبح ، بذلك هى

الآية المحكمة ، وتصير الاية التى كانت محكمة ، فى القرن السابع ، منسوخة الآن .. هذا هو معنى حكم الوقت .. للقرن السابع آيات الفروع ، وللقرن العشرين آيات الاصول .. وهذه هى الحكمة وراء النسخ .. فليس النسخ ، اذن ، الغاء تاما ، وانما هو ارجاء يتحين الحين ، ويتوقت الوقت .. ونحن فى تطويرنا هذا انما ننظر الى الحكمة وراء النص .. فاذا خدمت آية الفرع التى كانت ناسخة فى القرن السابع لآية الأصل غرضها حتى استنفدته ، واصبحت غير كافية للوقت الجديد — القرن العشرين — فقد حان الحين لنسخها هى ، وبعث آية الأصل ، التى كانت منسوخة فى القرن السابع لتكون هى صاحبة الحكم فى القرن العشرين ، وعليها يقوم التشريع الجديد .. هذا هو معنى تطوير التشريع .. فانما هو انتقال من نص خدم غرضه .. خدمه حتى استنفده الى نص كان مدخرا يومئذ الى ان يحين حينه .. فالتطوير ، اذن ، ليس قفزاً عبر الفضاء ، ولاهو قول بالرأى الفج ، وانما هو انتقال من نص الى نص ..

من المأذون ؟

ولكن رسول الله قد التحق بالرفيق الأعلى وترك ماهو منسوخ منسوخا ، وما هو محكم محكما .. فهل هناك احد مأذون له فى أن يغير هذا التغيير الاساسى ، الجوهرى ، فيبعث ما كان منسوخا ، وينسخ ما كان محكما ؟؟ هذا سؤال يقوم ببال القارىء لما سلف من القول .. والحق أن كثيراً ممن يعترضون على دعوتنا الى الرسالة الثانية من الاسلام لايعترضون على محتوى هذه الدعوة، بل انهم قد لا يعيرون محتوى الدعوة كبير اعتبار .. وانما هم يعترضون على الشكل .. هم يعترضون على ان تكون هناك رسالة ، تقتضى رسولا ، يقتضى نبوة ، وقد ختمت النبوة ، بصريح نص ، لا مرية فيه .. وانه لحق أن النبوة قد ختمت ، ولكنه ليس حقا أن الرسالة قد ختمت : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله ، وخاتم النبيين .. وكان الله بكل شىء عليما » .. ومعلوم أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا .. ولكن النبوة ما هى ؟؟ النبوة هى ان يكون الرجل منبأ عن الله ، ومنبئاً عن الله .. اى متلقياً المعارف عن الله بواسطة الوحى ، وملقيا المعارف عن الله الى الناس ، على وفق ما تلقى ، وبحسب ما يطيق الناس .. فبمرتبة التلقى عن الله يكون الرجل نبياً ، وبوظيفة الالقاء الى الناس يكون رسولا .. هذا هو مألوف ما عليه علم الناس .. ولكن هناك شيئا قد جد فى الأمر كله ، ذلك هو معرفة الحكمة وراء ختم النبوة بمعناها المألوف .. لماذا ختمت النبوة ؟؟

اول ما تجب الاشارة اليه هو أن النبوة لم تختم حتى استقر ، فى الارض ، كل ما أرادت السماء أن توحيه ، الى أهل الارض ، من

الامر .. وقد ظل هذا الامر يتنزل على اقساط ، بحسب حكم الوقت ، من لدن آدم والى محمد .. ذلك الامر هو القرآن .. واســـــتقراره فى الأرض هو الســـــبب فى ختم النبوة .. واما الحكمة فى ختم النبوة فهى ان يتلقى الناس من الله من غير واسطة الملك ، جبريل ــ ان يتلقوا عن الله كفاحا ــ ذلك امر يبدو غريبا ، للوهلة الاولى ، ولكنه الحق الذى تعطيه بدائه العقول ، ذلك بان القرآن هو كلام الله ، ونحن كلما نقرؤه انما يكلمنا الله كفاحا ، ولكنا لا نعقــل عنــه .. الســـــبب ؟ اننا عنه مشغولون .. قال تعالى فى ذلك : « كلا !! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا !! انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .. وانما جاء القرآن بمنهاج شريعته ، ومنهاج طريقته ، وبادبه فى كليهما ، لبرفع ذلك الرين ، حتى نستطيع ان نعقل عن الله ما يحدثنا فى القرآن ، فاذا وقع هذا الفهم لرجل فقد اصبح ماذونا له فى الحـــــديث عن اسرار القرآن ، بالقدر الذى وعى عن الله ..

من رسول الرسالة الثانية ؟؟

هو رجل آتاه الله الفهم عنه من القرآن ، واذن له فى الكلام ..

كيف نعـــــرفه ؟؟

حسنا !! قالوا ان المسيح قد قال يوما لتلاميذه : « احذروا الانبياء الكذبة !! » قالوا : « كيف نعرفهم ؟؟ » .. قال : « بثمارهم تعرفونهم » ..

بســـــــم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة الطبعـــــة الثالثة

هذه مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب « الرسالة الثانية من الاسلام »

وكانت الطبعة الأولى منه قد صدرت فى يناير من عام ١٩٦٧ ، الموافق لشهر رمضان المكرم من عام ١٣٨٦ .. ثم صدرت الطبعة الثانية منه فى ابريل من عام ١٩٦٨ ، يوافق المحرم من عام ١٣٨٨ .. وعند صدور هذه الطبعة صرفتنا صوارف العمل عن تصديرها بمقدمة خاصة بها ..

هذا الكتاب ــ الرسالة الثانية من الاسلام ــ كتاب جديد من جميع الوجوه .. وهــو ، الى جدته ، غريب كل الغرابة ، ولا غرو ، ذلك بأنه بشارة بعودة الاســـلام من جديد ، وأى الناس ، من علماء الناس ، لا ينتظر الغرابة فى عودة الاســـــلام من جديد ؟ ألم يقل المعصوم : « بدأ الاسلام غريبا ، وســـيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ! قالوا من الغرباء يارسول الله ؟ قال الذين يحيون ســـــنتى بعد اندثارها » ؟..

فالغرابة فى أصل عودة الاسلام ، ولكن هذا كثيرا ما يغيب عن الذين يتصدون للكتابة عن الاسلام ، ولقد تعرض لهذا الكتاب بعضهم فتورطوا فى معارضة ما لم يحسنوا فهمه ، ولم يطيقوا الصبر عليه ، فجاءت معارضتهم مثلا من سوء الفهم ، وسوء التخريج ، وســـــوء القصد أيضا ، ولسنا بحاجة لأن نرد على هؤلاء ، فان سوء صنيعهم يكفينا اياهم ، ولكننا نحب أن ننبه من عسى يحتاج الى تنبيهنا من القراء الى أن هــذا الكتاب حق ، وان الاطلاع عليه يقتضى الصبر ،

والاناة ، ودقة النظر ، فاذا ظفر القارىء بأولئك فانه سيتفتح ذهنه على فهم جديد ، للقرآن وللاســـلام ، وسيحمد عاقبة صبره ، وطول اناته ، ان شـــاء الله ..

الســـــنة والشريعة

ولقد ذكر النبى فى حديثه الغرباء ، وقال انهم هم الذين يحيون سنته بعد اندثارها .. وهم ، بالدعوة الى هذا الاحياء ، يصـــبحون غرباء بين أهليهم ، وذلك لما يصحب هذه الدعوة من خروج عن مألوف ما عليه الناس .. هم غرباء الحق بين قوم يغـــدو الحق بينهم غريبا لطول ما ألفوا الباطل فظنوه حقا ، ولطول ما غفلوا عن الحق ..

ان مما الف الناس ان سنة النبى هى قوله ، واقراره ، وعمله .. والحق ان هذا خطأ ، فان قول النبى ، واقراره ، ليسا سنة ، وانما هما شريعة .. واما عمله فى خاصة نفسه فهو سنة .. نعم هناك من قوله قول يلحق بالسنة ، وذلك هو القول الذى ينم عن حال قلبه من المعرفة بالله .. أما أقواله التى أراد بها الى تعليم الأمة فى أمر دينها فهى شريعة ، والفرق بين الشريعة ، والسنة ، هو الفرق بين الرسالة ، والنبوة ، أو هو الفرق بين مســـتوى الأمة ، من أعلاها الى أدناها ، ومستوى النبى .. وذلك فرق شاسع وبعيد ..

السنة هى عمل النبى فى خاصة نفسه ، والشريعة هى تنزل النبى ، من مستوى عمله فى خاصة نفسه الى مســـتوى أمته ، ليعلمهم فيما يطيقون ، وليكلفهم فيما يستطيعون .. فالسنة هى نبوته ، والشريعة هى رسالته .. وانما فى مضـــــمار رسالته هذه قال : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم »

الاســـــلام والايمان

والناس ، اليوم ، لا يملكون القــدرة على التمييز الدقيق بين الاسلام والايمان ، فهم يعتقدون ان الايمان أكبر من الاسلام ، وقد ورطهم فى هذا الخطأ عجزهم عن الشــعور بحالة الوقت ، ذلك بأن الوقت الذى كان فيه هذا الفهم صــحيحا قد انقضى ، وأقبل وقت تطور فيه فهم الدين ، وانتقل من مستوى الايمان ، الى مســـتوى الاسلام .. الأمر فحواه كالآتى :

الاسلام فكر يرتقى السالك فيه على درجات سلم سباعى ، أولها الاسلام ، وثانيها الايمان ، وثالثها الاحسان ، ورابعها علم اليقين ، وخامسها علم عين اليقين ، وسادسها علم حق اليقين ، وســـابعها الاسلام من جديد .. ولكنه فى هــذه الدرجة يختلف عنه فى الدرجة الأولية ، اختلاف مقدار ، فهو فى الدرجة الاولية انقياد الظاهر فقط ، وهو فى الدرجة النهائية انقياد الظاهر والباطن معا .. وهو فى الدرجة الاولية قول باللســـان ، وعمل بالجوارح ، ولكنه فى الدرجة النهائية انقياد ، واستسلام ، ورضا بالله فى السر والعلانية .. وهو فى الدرجة الاولية دون الايمان ،ولكنه فى الدرجة النهائية أكبر من الايمان .. وهذا ما لا يقوى العلماء الذين نعرفهم على تمييزه .. ولقد لبس على علماء الدين هذا الأمر حــديث جبريل المعروف ، الذى رواه عمر بن الخطاب ، قال : « بينا كنا جلوسا عند رسول الله ، صــلى الله عليه وسلم اذ أقبل رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يعرفه منا أحد ، ولا يرى عليه أثر السفر ، فجلس الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذيه ، ثم قال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام .. قال الاسلام ان تشهد الا اله الا الله ، وان محمدا رســول الله ، وأن تقيم الصلاة ،

وأن تؤتى الزكاة ، وأن تصوم الشهر ، وأن تحج البيت ، اذا استطعت اليه سبيلا .. قال صدقت . فعجبنا له ، يسأله ويصدقه !! ثم قال فأخبرنى عن الايمـــان .. قال الايمـــان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والقدر ، خيره وشره ، واليوم الآخر .. قال صدقت .. ثم قال فأخبرنى عن الاحسان .. فقال الاحســـــان أن تعبد الله كأنك تراه ، فأن لم تكن تراه فانه يراك .. قال صدقت .. ثم قال : أخبرنى متى الساعة ؟؟ فقال ما المسئول عنها بأعلم من السائل !! قال فاخبرنى عن علاماتها .. قال أن تلد الأمـــة ربتها وأن ترى الحفاة ، العراة ، رعاء الشـــــاة يتطاولون فى البنيان .. قال صدقت .. ثم انصرف ، فلبثنا مليا .. ثم قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يا عمر ، أتدرى من السائل ؟ قلت الله ، ورسوله ، أعلم .. قال هذا جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم !! » .. هـــذا الحديث لبس على علماء الدين الأمر فظنوا أن مراقى ديننا انما هى الاســـلام ، والايمان ، والاحسان .. ولما كان واردا فى القرآن قول الله تعالى من الاعراب « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا .. ولما يدخل الايمان فى قلوبكم . » فقد أصبح واضـــحا أن الايمان أعلى درجة من الاسلام .. وما علموا أن الأمر يحتاج الى نظر ..

جلية الأمـــر

وجلية الأمر ان الاسلام ، كما هو وارد فى القرآن ، قد جاء على مرحلتين : مرحلة العقيدة ، ومرحلة الحقيقة أو سمها مرحلة العلم .. وكل مرحلة من هاتين المرحلتين تقع على ثلاث درجات ..

فأما مرحلة العقيدة فدرجاتها الثلاث هى : الاسلام ، والايمان ، والاحسان .. وأما مرحلة العلم فدرجاتها الثلاث هى : علم اليقين ،

وعلم عين اليقين ، وعلم حق اليقين .. ثم تجىء ، بعد ذلك ، الدرجة السابعة من درجات سلم الترقى السباعى ، وتلك هى درجة الاسلام، وبها تتم الدائرة .. وتجىء النهاية تشبه البداية ، ولا تشبهها .. فهى فى البداية الاسلام ، وهى فى النهاية الاسلام . ولكن شـــتان بين الاسلام الذى هو البداية ، وبين الاسلام الذى هو النهاية .. وقد سبقت الى ذلك الاشارة ..

ومرحلة العقيدة هى مرحلة الأمة المؤمنة .. وهى أمة الرسالة الأولى ..

ومرحلة العلم هى مرحلة الأمة المســلمة .. وهى أمة الرسالة الثانية .. وهذه الامة لم تجىء بعد ، وانما جاء طلائعها ، فرادى ، على مدى تاريخ المجتمع البشرى الطويل . وأولئك هم الأنبياء ، وفى مقدمتهم سيدهم ، وخاتمهم ، النبى ، الأمى ، محمد بن عبد الله ، عليه أفضل الصــلاة وأتم التســليم .. وهو قد بشر بمجىء هذه الأمة المسلمة ، كما جاء برسالتها ، مجملة فى القرآن ، مفصلة فى السنة ، وقد أسلفنا الاشارة الى معنى السنة ... وحين تجىء هذه الامــة المســـــلمة فأنها لا تبدأ الا بما بدأت به الامة المؤمنة ، وهى مرحلة العقيدة ، ولكنها لا تقف فى الدرجة الثالثة من درجات السلم التى وقف جبريل فى أسئلته عندها ، وانما تتعداها فى التطور الى ختام الدرجات، فتكون بذلك صاحبة عقيدة ، وصاحبة علم ، فى آن معا ، فهى مؤمنة ، ومسلمة ، فى حين أن الأمة الأولى مؤمنة ، وليست مســـــلمة ، بهذا المعنى النهائى للاسلام ..

ويجب أن يكون واضحا فان جبريل انما وقف ، فى أسئلته ، عند نهاية درجــات العقيدة لأنه انما جاء ليبين للأمة المؤمنة دينها ، ولم يجىء ليبين للأمة المسلمة ، التى لما تأت بعد ..

ان محمدا رسول الرسالة الأولى ، وهو رسول الرسالة الثانية .. وهو قد فصل الرسالة الأولى تفصيلا ، وأجمل الرسالة الثانية أجمالا ، ولا يقتضى تفصيلها الا فهما جديدا للقرآن ، وهو ما يقوم عليه هذا الكتاب الذى بين يدى القراء ..

ان هذا الكتاب يهدى الطريق ، ولكنه لا يمكن من نفسه الا الذين يقبلون عليه بأذهان مفتوحة ..

عند الله نلتمس التسديد ، ونجح المراد .. انه نعم المولى ..

بســـــــم الله الرحمن الرحيم

« اليوم أكملت لكـــم دينكـم
وأتممت عليكم نعمتى ورضـيت
لكم الاســـــــلام دينا »

نحمدك اللهم ، ونســتهديك ،
ونستعينك ، ولا نحصى ثناء عليك ، انت
كما أثنيت على نفســـــــك :

توطئة البحث

عندما استعلن النور الالهى بمحمد الأمى من جبال مكة فى القرن السابع الميلادى ، أشرقت شمس مدنية جديدة ، بها ارتفعت القيمة البشرية الى قمة لم يسبق لها ضريب فى تاريخ البشرية .

ولقد قامت تلك المدنية الانسانية الجديدة على أنقاض المدنية المادية الرومانية فى الغرب ، وعلى أنقاض المدنية المادية الفارسية فى الشرق ، ولقد بلغت هذه المدنية الانسانية الجديدة أوجها ، من الناحية النظرية على الأقل ، غداة أنزل الله تعالى على نبيه الآية التى صدرنا بها هذا السفر ، وهى قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا . » وذلك فى نهاية الثلث

الأول من القرن السـابع ، ثم ان النبى لم يلبث أن التحق بربه ، فانثلمت بذلك قمة هرم هذه المدنية الانسانية الجديدة ، ومن أبلغ ما بلغنا فى ذلك عبارة أحد الأصحاب حين قال ، « ما كدنا ننفض أيدينا من تراب قبر رسول الاله حتى أنكرنا قلوبنا » وظهر صدق هذه العبارة عمليا فى أخريات خـلافة عثمان ، مما انتهى الى ما يعرف فى التاريخ الاسلامى بالفتنة الكبرى .

وهذه المدنية الانسانية الجديدة ، التى جاء بها الله على لسان محمد ، والتى عاش محمد فى أوجهـا ، والتى انحسرت قمة موجتها بهذه السرعة المذهلة لدى موت محمد ، كما جاء فى عبارة أحد أصحابه ، ما زالت قمتها تطمئن ، وقاعدتها تتسع ، حتى عادت مدنية مادية تشبه ، من بعض الوجوه ، المدنية الرومانية ، والمدنية الفارسـية ، اللتين أسلفنا القول بأن مدنية الاسلام قامت على أنقاضهما .

يقولون ان التاريخ يعيد نفسـه ، وهذا حق ، ولكنه ليس كل الحق ، ذلك بأن التاريخ لا يعيد نفسه بصورة واحدة ، وانما يعيدها بصورة تشبه من بعض الوجوه ، وتختلف من بعضها ، عما كان عليه الأمر فى سـابقه ، فالمكان ليس كرويا ، ولا الزمان ، تبعا لذلك ، بكروى ، وانما هما لولبيان ، يسيران من قاعدة الى قمة ، تشبه فيهما نهاية الحلقة بدايتها ، ولا تشبهها .

وكما ان الزمان ، على كوكبنا هذا ، يسير على رجلين ، من ليل ونهـار — من ظلام ونور — وكما أن الانسان يمشى على رجلين من شـمال ويمين ، فكذلك الحياة تتطور على رجلين من مادة وروح .. وعندما يقدم المجتمع البشرى ، فى ترقيه ، رجل المـادة ، ويثبتها ، ويعتمد عليها ، يكون فى حالة تهيؤ ليقدم رجل الروح ، وهـو لابد مقدمها ، « كان على ربك حتما مقضيا . » ذلك بأن تقـدم الحياة

لا يقف اطلاقا ، ولا يتأخر ، ولا يكرر نفسه ، وانما يسير قدما فى مدارج مراقيه ، حيث تطلب الحياة ان تكون كاملة فى الصور ، كما هى كاملة فى الجوهر • وهيهات !!

أوقل ان سير الحياة ، فى مراقيها ، كسير الموجه ، فهى لا تنفك بين سفح وقمة ، وهى عندما تكون فى السفح انما تحتشد لتقفز الى القمة ، وانما يمثل السفح التقدم المادى للمجتمع البشرى ، وتمثل القمة تقدمه الروحى ، والذين لا يرون صورة سير المجتمع مكتملة ، وانما يرونها بالتفاريق ، ينعون عليه تقدمه المادى ، ولا يعتبرونه الا انحطاطا ، ويحسبونه رجسا من عمل الشيطان ، والله هو المسير الحياة اليه ، على هذين الرجلين ، من المادة والروح • وفى الحق ، انه لدى التوحيد ، انما المادة والروح شىء واحد ، ولا يقع بينهما اختلاف نوع ، وان وقع بينهما اختلاف المقدار •

الباب الأول

المدنية والحضـــــارة

المدنية غير الحضارة ، وهما لا يختلفان اختلاف نوع ، وانمـا يختلفان اختلاف مقـدار .. فالمـدنية هى قمة الهـرم الاجتماعى والحضارة قاعدته .

ويمكن تعريف المدنية بأنها المقدرة على التمييز بين قيم الأشياء ، والتزام هذه القيم فى السلوك اليومى ، فالرجل المتمدن لا تلتبس عليه الوسائل مع الغاية ، ولا هو يضحى بالغاية فى سبيل الوسيلة . فهو ذو قيم وذو خلق . وبعبارة موجزة ، فالرجل المتمدن هو الذى حقق حياة الفكر وحياة الشعور .

هل المدنية هى الأخلاق ؟؟

هى كذلك ، من غير أدنى ريب !! وما هى الأخلاق ؟ للأخـلاق تعاريف كثيرة ، ولكن أعلاها ، وأشـملها ، وأكملها هى أن نقول أن الأخلاق هى حسن التصرف فى الحـرية الفردية المطلقة . ولقد قال المعصوم « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . » فكأنه قال ما بعثت الا لأتمم مكارم الاخلاق ، ومن أجل ذلك قلنا أن محمدا عاش فى أوج المدنية التى جاء بها الله عن طريقه ، ووصـــــفه تعالى فيها بقوله « وأنك لعلى خلق عظيم »

وحين سـئلت عائشة عن أخلاق النبى قالت « كانت أخـلاقه

القرآن » ومعلوم أن القرآن أخلاق الله ، وأخـلاق الله انما هى فى الاطلاق ، ومن ههنا جاء التعريف بأن الأخلاق هى حسن التصرف فى الحرية الفردية المطلقة .

ولقد كان محمد أقدر الناس على حسـن التصرف فى الحرية الفردية المطلقة ، وذلك لشدة مراقبته لربه ، ولدقة محاسبته لنفسه ، على كل ما يأتى ، وما يدع ، فى جانب الله ، وفى جانب الناس . أليس هو القائل « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ؟ »

بل ان حسن التصرف فى الحرية الفردية المطلقة انما هو سـنة النبى ، التى طالما تحدث عنها الناس ، من غير أن يدركوا حقيقتها . وهذه السنة هى التى أشار اليها فى حديثه المشهور عن عودة الاسلام ، وذلك حيث يقول « بدأ الاسلام غريبا ، وسـيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ! قالوا من الغرباء يا رسول الله ؟ قال الذين يحيون سنتى بعد اندثارها . »

فسنته هى مقدرته ، فى متقلبه ومثواه ، وفى منشطه ومكرهه ، على حسن التصرف فى الحرية الفردية المطلقة ، وتلك هى قمة الأخلاق، وهى أيضا قمة المدنية .

وأما الحضـارة فهى ارتفاق الحى بالوسائل التى تزيد من طلاوة الحياة ، ومن طراوتها .. فكأن الحضارة هى التقدم المادى ، فاذا كان الرجل يملك عربة فارهة ، ومنزلا جميلا ، وأثاثا أنيقا ، فهو رجل متحضر ، فاذا كان قد حصل على هذه الوسائل بتفريط فى حريته فهو ليس متمـدنا ، وان كان متحضرا ، وانه لمـن دقائق التمييز ان نتفطن الى أن الرجل قد يكون متحضرا ، وهو ليس متمدنا ، وهـذا كثير ، وانه قد يكون متمدنا ، وهو ليس بمتحضر ، وهذا قليل ، والكمال

فى أن يكون الرجل متحضرا متمـدنا فى آن • وهـــو ما نتطلع اليه منذ اليوم •

المدنية الغـــربية

على هذا الفهم الدقيق ، فان المدنية الغربية الحاضرة ليســت مدنية ، وانما هى حضارة ، وهى ليست مدنية لأن موازين القيم فيها قد اختلت ، فتقدمت الوسيلة وتأخرت الغاية • ولقد ورد فى « رسالة الصلاة » قولنا « ان المدنية الغربية الآلية الحاضرة عملة ذات وجهين : وجه حسن مشرق الحسن ، ووجه دميم •• فأما وجهها الحسن فهو اقتدارها فى ميدان الكشوف العلمية ، حيث أخذت تطوع القوى المادية لاخصاب الحياة البشرية ، وتستخدم الآلة لعون الانسان : وأما وجهها الدميم ، فهو عجزها عن السعى الرشيد الى تحقيق الســلام ، وقد جعلها هذا العجز تعمل للحرب ، وتنفق على وسايل الدمار اضعاف ما تعمل للسلام ، وأضعاف ما تنفق على مرافق التعمير •

فالوجه الدميم من المدنية الغربية الآلية الحاضرة هو فكــرتها الاجتماعية ، وقصور هذه الفكرة عن التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة •• حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وفى الحق ان العجز عن التوفيق بين هاتين الحاجتين :

حاجة الفرد ، وحــاجة الجماعة ظل آفة التفكير الاجتماعى فى جميع عصور الفكر البشرى •

وهذا التوفيق هو ، الى اليوم ، القمة التى بالقياس اليها يظهر العجز الفاضح ، فى فلسفة الفلاسفة ، وفكر المفكرين ، ويمكن القول بأن فضيلة الاسلام لا تظهر ، بصورة يقصر عنها تطاول كل متطاول ،

الا حين ترتفع المقارنة بينه وبين المذاهب الأخرى الى هـــذه القمة الشماء . » هذا ما قلناه فى « رسالة الصلاة » يومئذ ، ونقول اليوم أن من آيات اختلال موازين القيم فى هــذه المدنية الغربية المادية ، ان الشيوعية الروسية أعطت اعتبارا للمجتمع ، وهو وســيلة ، فوق ما أعطت الفرد ، وهو غاية وان الاشتراكية فيها تقوم على حساب الحرية الجماعية ، وعلى حساب الحرية الفردية ، وليست الرأســمالية فى الغرب باحسن حالا ، فى هذا الباب ، من الشيوعية الروسية .

فشـــل المدنية الغربية

وهذه المدنية الغربية الآلية الحاضرة قد بلغت نهاية تطورها ، وقد فشلت فشلا نهائيا وظاهرا فى أن تنظم حياة المجتمع البشرى المعاصر ، وآية هذا الفشل ان مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية لم يذق الاستقرار الذى ذاقه مجتمع ما بعد الحرب العالمية الأولى ، حين كانت هذه المدنية الغربية لا تزال غنية بأفانين الحلول لمشــاكل ذلك المجتمع ، فقد كان المنتصر فى الحرب العالمية الأولى منتصرا فى السلام أيضا ، وقد كان بذلك قادرا على تنظيم المجتمع العالمى يومئذ ، بصورة من الصور ، مهما يكن عيبها ، فقد كانت كافية لتحقيق نزع السلاح ، ولو الى مدى ، والى حين ، وكانت كافية لتحقيق لون من الاستقرار . وأما المنتصر فى الحرب العالمية الثانية ، وهو بريطانيا ، فقد أصــبح منهزما فى الســلام الذى أعقبها ، وان أردت الدقة فقل ، لم يكن فى الحرب العالمية الثانية منتصر ومنهزم ، وانما أصبح الجميع فى مركب واحد ، تلفهم الحيرة فى جناحها الأسود ، وها قد انقضى على نهاية الحرب نيف وعشرون عاما ، ولا تزال البشرية من خوف الحرب فى حرب ، فهى تتحدث عن السلام ، وتتفق على التسلح أضعاف ما تتفق على مرافق التعمير وما ذاك الا لأنها لا تعرف طريقا الى السلام الا

طريقا يقوم على تخويف العدو من عواقب المجازفة باشـــــعال نار الحــرب •

وسبب فشل المدنية الغربية الآلية الحاضرة فى تنظيم المجتمع الحاضر هو أنها بلغت نهاية تطورها المادى الصرف ، فى هذه المرحلة الحاسمة ، من مراحل تحولات المجتمع البشرى المعاصر ، وأصبحت تفتقر الى عنصر جديد تشفع به عنصرها القديم ، وتلقحه به ، وتزيد بذلك من طاقتها على التطور ، ومن مقــدرتها على مواكبة ، وتوجيه حيوية المجتمع الحديث •

روسيا ، وهى تواجه الفشل اليوم فى تحقيق الاشــتراكية ، بله الشيوعية وتنكص على أعقابها ، الى اجراءات هى أدخل فى الرأسمالية منها فى الاشتراكية ، تتوخى بها ايجاد حوافز للانتاج جديدة ، تعطى أكبر الدليل على أن المدنية الغربية الحاضرة بلغت نهاية تطورها المادى الصرف ، ووقفت عند نهاية الطريق المسدود وسيصبح لزاما عليها أن ترجع الى مفترق الطرق ، حيث تبدأ بسلوك طريق آخر ، كانت شرة الثورة قد أذهلتها عن سلوكه منذ نصف قرن مضى • ولن تجد الصين فرصة التجربة الطويلة التى وجدتها روســـيا ، ذلك لأن الزمن قد أزف ، وأن المفارقة الكبيرة بين طاقة المجتمع البشرى الحـــديث ، وقصور المدنية الغربية أصبحت تتضح كل يوم ، وقد أخذت الصــين تشعر بهذا التناقض الرهيب ، ولكنها لم تهتد الى متنفس له الا فى هذه الحالة العصبية ، التى أسمتها سخرية ، بالثورة الثقافية يقوم بها ، فى الشوارع والأماكن العامة ، المراهقون ضد أساتذة الجامعات والعلماء ، وهى تستهدف ، فيماتستهدف ، تأليه ماو تسى تونغ ، وجعل

كتاباته مصادر الثقافة الوحيدة ، ومناهل الحكمة التى ينتهى عندها رأى كل ذى رأى .

وليس من الضرورى ان نذكر الغرب الرأسمالى هنا ، لأن مفارقات المدنية الغربية تمثلها الشيوعية فى روسيا وفى الصين أكثر مما يمثلها الغرب ، ولأن الغرب الرأسمالى ليس بصاحب رأى جديد فى المدنية الغربية ، وانما هو مقيم على القديم ، على تطوير يسير سببه تطرف الثورة الشيوعية ، مما اضطره الى ملاقاتها فى نصف الطريق ، فى محاولة الأبقاء على نظامه القديم ، فى وجه الثورة المجتاحة . فسبب فشل المدنية الغربية الآلية الحاضرة اذن ، هو ان تقدمها المادى والآلى ، لم يشفع بتقدم خلقى يصحح موازين القيم ، ويضع الآلة فى مكانها من حيث انها خادم الانسان وليست سيدته ، فالتقدم المادى غير متناسق ، ولا متساوق ، مع التقدم الروحى ، وفى تفكيرنا الاجتماعى المعاصر ، كما سبق بذلك القول ، الرغيف يجد اعتبارا فوق ما تلقى الحرية ، وهذه الظاهرة تنطبق على المذاهب الاشتراكية ، كما تنطبق على الرأسمالية ، وفى الحق أن الشيوعية لا تختلف عن الرأسمالية ، الا اختلاف مقدار فهى كالرأسمالية ، مادية فى الأصل ، ولكنها أكفأ منها ، من حيث المقدرة على تحقيق الوفرة المادية ، وعدالة توزيعها ، وما ينبغى أن نخدع عن هذه الحقيقة بملاحظة العداوة النائرة بينهما ، فانما هى بمثابة العداوة التى تكون بين الفرق المختلفة فى الدين الواحد فهى عداوة لا تدل على اختلاف المنبت كما تدل علىوحدة الأديم الذى تقوم عليه هذهالفرق المتناحرة .

واذا أردنا أن نضع سبب فشل المدنية الغربية الآلية الحاضرة وضعا محددا ، وجب علينا أن نقرر أن مرد هذا الفشل هو عجز هذه

المدنية عن الاجابة على سؤالين ظلا بغير جواب صحيح طوال الحقب السـوالف من التاريخ البشرى ، وقد اصـبحت الاجابة عليهما ضربة لازب .

والسـؤالان هما : ما حقيقة العلاقة بين الفرد والجماعة ؟ وبين الفرد والكون .

الباب الثانى

الفرد والجماعة فى التفكير الفلسفى

أما الفلسفة الاجتماعية ، عبر العصور والى ان انتهت بالشيوعيه المعاصرة ، فانها قد فشلت فى ادراك العلاقة بين الفرد والجماعة ، فهى قد ظنت ان الفرد اذا وجد الفرصة لممارسة حريته فان نشاطه سيكون ضد مصلحة الجماعة ، ولما كانت الجماعة أكثر من الفرد ، فان مصلحتها أولى بالرعاية من مصلحته ، ومن ثم أهدرت حرية الفرد ، فى سبيل مصلحة الجماعة ، متى ظهر انهما تتعارضان .

ومتى نظرت الى تاريخ المجتمع البشرى ، منذ نشاته والى يوم الناس هذا ، ظهر لك جليا أن حرية الفرد كثيرا ما تتعارض مع مصلحة الجماعة ، بل ظهر لك ان الجماعة لم يقم نظامها ولم تصن مصالحها الا على حساب تقييد حرية الفرد ، ذلك بأن الفرد البشرى ارتفع من حيوانية متوحشة ، لا هم لها غير تحصيل شهوة البطن والفرج ، ولما كان المجتمع البشرى فى أولياته لم يكن لينشأ الا اذا قيدت هاتان الشهوتان ، فقد قام العرف الذى ينظم العلاقات الجنسية ، فيحرم الأخت على الأخ ، ويحرم البنت على الاب ، ويحرم الام على الابن ، ويحرم زوجة الابن على الأب ، ويحرم زوجة الأب على الابن ، قبل أن يقوم العرف الذى يحرم الزنا عموما ، وقد أعان هذا العرف ، أو سمه القانون الأول ، على تهدئة الغيرة الجنسية التى كانت تفرق الأسرة البشرية ، كلما بلغ الابناء فيها مبلغ الرجال ، فقد أصبح ، بعد هذا

العرف ، من الممكن ان يتعايش ، فى منزل واحد ، أو فى منازل متجاورة، الأب والابن البالغ والصهر والابن المتزوج ، وكل منهم آمن على زوجته من الاخرين • ولربما يكون العرف الذى ينظم احترام الملكية الفردية قد نشأ مع هذا العرف من الوهلة الأولى ، فانه ، فى المجتمعات البدائية ، ليس هناك كبير فرق بين ملكية الزوجة ، وملكية الآلة أو الكهف ، واذا كان لابد للمجتمعات الصغيرة أن تعيش فى وئام ، وفى مكان واحد ، وفى أعداد تتزايد دائما ، تصيد معا ، وتحارب أعداءها معا ، وتقابل صروف الأيام متحدة ، فانه لابد من التواضع على هذين العرفين ، اللذين ينظمان السلوك فى الجماعة ، ويصونان كيانها ، ولابد أن عقوبة القتل كانت تنفذ فى الفرد لدى ثبوت تهمة الزنا ، فى هذه الدوائر ، عليه ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء • ولقد كانت عقوبة القتل توقع على الفرد أيضا لدى السرقة من عشيرته الأقربين ، ثم عممت فأصبحت تطبق لدى السرقة من حيث هى ، وذلك عندما اتسعت الجماعة ، ثم خففت ، فأصبحت تستأصل طرفا من السارق بدلا من استئصال حياته كلها ، ذلك بأن الأفراد قد بلغوا من الرفعة والذكاء بحيث يرتدعون بعنف أخف من العنف الذى كان ضروريا لردع أسلافهم •

وليس معنى هذا الحديث أن المجتمعات كلها نشأت بصورة واحدة فى كل مكان ، ولكنه مما لاشك فيه ان المجتمعات البشرية حيث نشأت فقد نشأت حول طائفة من العادات والاعراف ، التى تمثل نشأة القانون ، والتى يرجع اليها الفضل فى نشأة المجتمع البشرى • ولما كان الفرد البشرى الأول غليظ الطبع ، قاسى القلب ، بليد الحس ، حيوانى النزعة فقد احتاج الى عنف عنيف لترويضه، ولنقله من الاستيحاش الى الاستيناس ، وكذلك كان العرف الاجتماعى الأول ، شديدا عنيفا ،

يفرض الموت عقوبة على أيسر المخالفات ، بل آنه يفرض على الأفـراد الصالحين أن يضعوا حياتهم دائمـا فى خدمة مجتمعهم ، فقـد كانت الضحية البشرية معروفة تذبح على مذابح معابد الجماعة ، استجلابا لرضا الآلهة ، أو دفعا لغضبها حين يظن بها الغضب ، ولقد كانت هذه الشريعة العنيفة ، فى دحض حرية الفرد ، فى سبيل مصلحة الجمـاعة معروفة ومعمولا بها ، الى وقت قريب ، ففى زمن أبى الأنبياء ، ابراهيم الخليل وهو قد عاش قبل ميلاد المسيح بحوالى ألفى سنة ، كانت هذه الشريعة لا تزال مقبولة دينا وعقلا ، فانه هو نفسه قد أمر بذبح ابنه اسماعيل، فأقبل على تنفيذ الأمر غيرهياب ولا متردد ، فتأذن الله يومئذ بنسخها فنسخت ، وفدى البشر بحيوانية أغلظ من حيوانيته ، وكان هـذا اعلاما بأن ارتفاع البشر درجة فوق درجة الحيوان قـد أشرف على غايته ، ولقد قص الله علينا من آمر ابراهيم واسماعيل فقال « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدينى * رب هب لى من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المـنام انى اذبحك ، فانظر ماذا ترى ، قال يا أبتى افعل ماتؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه ان يا ابراهيم * قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين * ان هذا لهو البلاء المبين * وفـديناه بذبح عظيـم * وتركنا عـليه فى الآخـرين * سلام على ابراهيم . »

« وتركنا عليه فى الاخرين» تعنى ، فيماتعنى ، ابطال شريعة العنف بالفرد البشرى ، لأنها لبثت حقبا سحيقة ، وقد تم انتفاعه بها ، فارتفع من وهدة الحيوانية وأصبح خليقا أن يفدى بما هو دونه مـن بهيمة الأنعـام .

ولا عبرة ببعض صور العنف التى لا يزال يتعرض لها الأفراد فى

المجتمعات البشرية المعاصرة ، فأنها آيلة الى الزوال كلما أتيحت لها فرص الوعى والرشد . فان التضحية الحسية بالفرد البشرى لم تنته بجرة قلم على عهد ابراهيم الخليل ، والتاريخ يخبرنا أن المسلمين ، لدى فتح مصر ، قد وجدوها تمارس فى صورة عروس النيل ، فانه قد قيل ان عمرو بن العاص ، فاتح مصر وأميرها يومئذ ، قد انتبه ذات يوم على جلبة عظيمة ، فسأل عنها ، فأخبر أن القوم قد جرى عرفهم بأن يتخيروا بنتا ، من أجمل الفتيات ، ومن أعرق الأسر ، يزفونها كل عام الى النيل ، يلقونها فى أحضانه فداء لقومها من القحط ، لأنها تغرى النيل بأن يفيض عليهم باليمن والبركات ، فطلب اليهم عمرو بن العاص أن يستأنوا بها ، حتى يستأمر عمر بن الخطاب فى ذلك ، فكتب الى عمر ، فرد عمر بجوابه المشهور الذى قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من عبد الله عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين ، الى نيل مصر .

السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فأن كنت تفيض من عندك فلا تفض ، وان كنت انما تفيض من عند الله ففض .

وأمر عمرو بن العاص أن يلقيه فى النيل ، ففعل ، وفاض النيل ، وأبطلت من يومئذ تلك العادة ، وتم بالعلم فداء جديد للفرد البشرى .

وهذا العنف العنيف بالفرد البشرى، الذى استمر منذ فجر المجتمع البشرى ، وهو قبل فجر التاريخ بآماد سحيقة ، وظلت صوره الى وقت قريب ، كالذى سقنا عليه المثالين الماضيين ، ضلل المفكرين الاجتماعيين ، فظنوا أن حرية الفرد ، قياسا الى ما جرى به التاريخ ، تتعارض دائما مع مصلحة الجماعة ، وان الرشد ادن فى أن يضحى

بحرية الفرد فى سبيل مصـــلحة الجماعة • وتورطت فى هذا الوهم الشيوعية ، وهى طليعة الفلسفة الاجتماعية المعاصرة ، وصاحبة الدور التقدمى الذكى فى المدنية الغربية الآلية الحاضرة •

الفرد والكون فى التفكير الفلسفى

وعجز الفلسفة الاجتماعية المعاصرة فى ادراك العلاقة بين الانسان والكون ، أكبر من عجزها عن ادراك انعـــلاقة بين الفرد والجماعة ، ولكن أثره أقل ظهورا ، ذلك بأن علاقة الفرد بالجماعة واجهت التطبيق العملى ، فى السياســة والتشريع والتنفيذ ، بينما لا تزال العــلاقة بين الفرد والكون فى الحيز النظرى ، وما ذاك الا لأننا لا نزال فى قبضة غريزة القطيع ، لم يقو بنا الفكر حتــى نبرز الى منازل الفــرديات • ولكن ، مما لاريب فيه ، ان عهد الجماعة أصبح يخلى مكانه لعهـــد الفرد الذى أخذت شمسه تؤذن بشروق ، وســـيحل يومه حين يتم نظريا ، ثم عمليا ، فض التعارض المتوهم بين الفرد والجماعة ، وهو أمر سنتحدث عنه بالتفصيل بعد قليل ، ان شاء الله •

والفهم الدقيق للعلاقة بين الانسان والكون ليس أمر فلســـفة نظرية يمكن أن تلحق بالترف الذهنى ، وانما هو أمــر عملى ، عــليه يتوقف تحقيق الفردية ، فى مضمار المجهود الفردى ، وفى مضمار تنظيم الجماعة لتكون والدا شرعيا للأفــراد الذين يرجى لهم أن يحققــوا فــردياتهم •

وضلال الفلسفة الاجتماعية عن فهم العلاقة بين الانسان والكون فهما صحيحا انما يلتمس سببه فى اســـتقراء التاريخ البشرى منذ بداياته ، ذلك بأن الانسان الأول ، عندما وقف على رجليه لأول مرة ، واستقبل بعقله البيئة الطبيعية التى عاش فيها ، وجدها تزخر بالقــوى

الهائلة التى ، فيما يبدو له ، تتركب بطريقة تختلف عن تركيبه ، وتتصرف بأسلوب لا يستقيم مع تفكيره ومع رغباته ، وهى بعد لاتبالى بحياته أو موته ، بل ان كثيرا منها ليسعى فى اهلاكه سعيا حثيثا ، والذين يشاركونه الحياة ، بين هذه القوى الصماء الهائلة ، هم بين صيد وصياد — صيد يصيد ويصاد ، وصياد يصيد ويصاد ، فكأن البيئة كلها ، أنياب زرق ، ومخالب حمر ، وأصبح عليه هو ، اذا كان لابد له أن يحفظ مهجته ، أن يكيد أصناف الكيد ، وأن يحتال لنفسه ألوان الحيل .

ثم ان هذه القوى الصماء ، منها الهائل الرهيب الذى يعجز حيلته ، ويعيى عقله ، ومنها ما يغلب منه الضرر ، ومنها ما يغلب منه النفع ، فهدته حيلته الى التزلف اليها جميعا ، بدوافع الخوف ، أو بدوافع الحب ، فتذلل ، وتخشع ، وقدم الهدايا ، وقرب القرابين ، ورسم مراسيم العبادات . ومن القوى التى تموج بها البيئة الطبيعية التى عاش فيها ، قوى تنالها الحيلة ، وتبلغ منها المناجزة ، فاحتال أفانين الحيلة ، فبنى البيوت فوق الأشجار ، وعلى قمم الجبال ، وعلى أعمدة اتخذها من سيقان الشجر وغرزها فى أرض برك المياه ، وفى الأماكن المحصنة الأخرى . ثم هو باتخاذ الآلة ، من فروع الأشجار ، ومن قطع الاحجار ، قد مد فى قدرته على المناجزة .

والانسان ، بين العبادة والمناجزة ، تغلب عليه الوحشة ، ويساوره القلق بأنه وحيد من نوعه ، يحتوشه الأعداء من جميع اقطاره ، يتحينون منه الغرة ، ويتربصون به الدوائر ، ومن ههنا قام فى خلد الانسان ان مكانه من الكون مكان اللدد والخصومة .

ولقد انتهت الفلسفة ببعض أبنائها الآن الى أن يقرروا ان التدين ، الذى دفع اليه الانسان الأول ، بالعوامل الطبيعية التى جرى ذكرها

آنفا ، انما هو لازمة مـن لوازم الطفولة ، وان الدين ، حيث وجـد والى اليوم، انماهو ظاهرة طفولة ، اذ لجأ الانسان الأول الىاله تخيله ليسد به حاجة الطفل فيه الى أب يحميه • وان الأصل فى مواجهة البيئة هو المناجزة ، لا التمليق ، وما دفع الانسان الى التمليق الا العجز عن المناجزة ، والآن ، وبتطويره لسلاحه الأول ، من فروع الأشجار وقطع الأحجار ، الى أن بلغ به القنبلة الهيدروجينية ، فان مقدرته على المناجزة اكتملت ، أو كادت ، ويجب اذن ان يقلع عن التمليق ، أو قـل عـن التدين ، وعن الأديان ، وعن الله •

والى خروشيف ينسب قول ، زعموا انه قاله ، وهو ان قاقارين عندما دار فى الفضاء الخارجى وكان ذلك لأول مـرة فى تاريخ تقـدم العلم الحديث ، لم يجد ذلكالكائن الذى يدعونه الله ، فكأن خروشيف لا يتصور الله الا من نوع المادة التى يزعم انه يعرفها ، وفى الحق ، ان فلسفتهم ، حين عجزت عن تصور شىء وراء المادة ، اتخذت من عجزها فضيلة ، فأنكرت وجود كل شىء وراء المادة ، وذلك لكى يستقيم لها القول بأن الانسان ، أثناء مناجزته لبيئته المادية ، يتطور فى فهمه لها ، ويحسن من وسائله فى مناجزتها ، حتى يتم له قهرها وتسـخيرها ، ويصبح بذلك سيد مصيره •

ان الضلال فى فهم علاقة الانسان بالكون لم يبلغ ، فى أى وقت من الاوقات ، هذا البعد الذى بلغه على عهد الشيوعيه ، وباسم العلم والفلسفة ••• والشيوعية هى طليعة الفلسفة الاجتماعية المعـاصرة ، وهى صـاحبة الدور التقدمى ، الذكى ، فى المدنية الغـربية الآلية الحاضرة •• على أيسر تقدير ، هذا ما يبدو للشعوب الآن •

أم تقولون ان الغرب المسيحى يختلف فى مسألة الدين ، وفى أمر الله ، عن الشرق الشيوعى •

قد يكون هذا حقا من الناحية التقليدية ، ولكنه ليس بحق من الناحية العملية ، وليس فى فكرة الغرب عن الدين ، وعن الله ، ما يعصم الغرب من أن يصبح شيوعيا ، ولقد كانت روسيا ، قبل الثورة الشيوعية ، مسيحية ، وكانت أورثوذكسيه فى ذلك .

وفى الحق ، ان الدين ، سواء كان مسيحية أو اسلاما ، ان لم يستوعب كل نشاط المجتمع ، ونشاط الأفراد ، ويتولى تنظيم كل طاقات الحياة الفردية والجماعية ، على رشد وعلى هدى ، فانه ينصل من حياة الناس ، ويقل أثره ، ويخلى مكانه لأية فلسفة أخرى ، مهما كان مبلغها من الضلال ، مادامت هذه الفلسفة قادرة على تقديم الحلول العملية لمشاكل الناس اليومية ، أو حتى ما دامت قادرة على تضليل الناس ، الى حين ، باسم خدمة مصالحهم المعيشية ، فان الناس ، ما داموا أصحاب معدات وأجساد ، يجب الا تهمل دعوتهم الى الفضيلة حاجة معداتهم وأجسادهم ، بل ان المعرفة بطبائع الأشياء تقضى بأن تكون دعوتهم الى الفضيلة عن طريق معداتهم واجسادهم .

ومهما يكن من الأمر بين الشرق الشيوعى ، والغرب المسيحى ، فان المدنية الغربية الآلية الحاضرة ليست مسيحية ، وهى قد عجزت عن ادراك العلاقة بين الفرد والجماعة ، كما عجزت عن ادراك العلاقة بين الفرد والكون ، وهى من جراء هذا العجز قد منيت بالقصور العملى عن الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية وذلك أكبر مظاهر فشلها .

ولسنا نحن الآن بصدد الزراية عليها ، ولابصدد التقليل من شأنها ، وانما نحن بصدد دراسة علمية لها، تضعها فى موضعها، وتعرف لها حقها ، وتدعو الى سد النقص فيها لتغدو مدنية بعد أن أصبحت حضارة .

الباب الثالث

الفرد والجماعة فى الاسلام

أول ما تجب الاشارة اليه هو أن الفرد فى الاسلام هو الغاية وكل ما عداه وسيلة اليه ، بما فى ذلك وسيلة القرآن ، والاسلام ، تستوى فى ذلك المرأة مع الرجل مساواة تامة ، وهذا يعنى ان الفرد البشرى ـ امرأة كان أو رجلا ، عاقلا كان أو مختل العقل ـ يجب الا يتخذ وسيلة الى غاية وراءه ، وانما هو الغاية التى تؤدى اليها جميع الوسائل •

وهذه الفردية هى جوهر الأمر كله ، اذ عليها مدار التكليف ، ومدار التشريف ، واذ لا تنصب موازين الحساب ، يوم تنصب ، الا للأفراد ـ يتساوى فى ذلك الرجال والنساء وهذه النقطة نحب لها أن تكون مركزة فى الأذهان ـ فالله تعالى يقول « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ويقول « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ويقول « ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » ويقول « ان كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » ويقول « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » وهذه المساواة بين الرجل والمرأة ، هى أصل الاسلام وانما ميزت بينها الشريعة لعوامل تلتمس فى تطور المجتمع عبر التاريخ •

ومما لا ريب فيه ان الفرد الذى يقام له وزن فى الاسلام انما هو الفرد العارف بالله ، وانما جعل الاسلام كل فرد غاية فى ذاته ،

وان كان أبله ، لأنه جرثومة العارف بالله ، وستحصل منه المعرفة ، عاجلا أو آجلا ، « كان على ربك حتما مقضيا » ولقد زعمنا فى مستهل هذا السفر ان الاسلام قد استطاع ان يفض التعارض البادى بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة ، وان ينسق هاتين الحاجتين فى سمط واحد ، تكون فيه حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، امتدادا لحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة • وبعبارة أخرى ، استطاع ان يجعل تنظيم الجماعة وسيلة الى الحرية ، وهو بعد انما استطاع هذا التنسيق بفضل التوحيد ، الذى جعل شريعته تقع على مستويين •• مستوى الجماعة ، ومستوى الفرد : فأما تشريعه فى مستوى الجماعة فيعرف بتشريع المعاملات ، وأما تشريعه فى مستوى الفرد فيعرف بتشريع العبادات • والسمة الغالبة على تشريع المعاملات انه تشريع ينسق العلاقة بين الفرد والفرد فى المجتمع ، والسمة الغالبة على تشريع العبادات انه تشريع ينسق العلاقة بين الفرد والرب ، وليس معنى هذا ان كلا من هذين التشريعين يقوم بمعزل عن الآخر ، وانما معناه انهما شطرا شريعة واحدة ، لا تقوم الا بهما معا ، وبينهما اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع • فتشريع المعاملات تشريع عبادات فى مستوى غليظ ، وتشريع العبادات تشريع معاملات فى مستوى رفيع ، وذلك لأن سمة الفردية فى العبادات أظهر منها فى المعاملات •• والمقرر انه ليست للعبادة قيمة ان لم تنعكس فى معاملتك الجماعة معاملة هى فى حد ذاتها عبادة • ولقد جعل المعصوم الدين كله فى هذا المجال فقال : « الدين المعاملة » فكأن العبادة فى الخلوة مدرسة تعد الفرد الاعداد النظرى ، ثم هو لا يجد فرصة التطبيق العملى الا فى سلوكه فى الجماعة ، وتمرسه بمعاملة أفرادها •

فالتوحيد يقرر ان الوجود كله مصدره واحد ، وطريقه واحد ، ومصيره واحد •• من الله صدر ، والى الله يعود ، وانما يعود فرادى

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » . وليست العودة الى الله بقطع المسافات ، وانما هى بتقريب الصفات من الصفات . بتقريب صفات المحدود ، من صفات المطلق . وانما تكون عودة الفرد الى الله بوسائل العودة اليه ، ومنها وسيلة الاسلام ، ووسيلة القرآن ، ووسيلة الجماعة .. والجماعة لها حرية ، وهى بمثابة قاعدة الهرم حين تكون حرية الفرد هى قمته . أو قل أن حرية الجماعة هى الشجرة وحرية الفرد هى الثمرة ، ومن ثم ، ومن هذه النظرة الشاملة ، لا يجد الاسلام تعارضا ، ولا تناقضا ، بين الفرد والجماعة .

وحين وصل الاسلام ، بفضل التوحيد ، الى هذا التحقيق الدقيق ، بين الفرد والجماعة ، شرع كل تشريعاته بصورة تحقق فى سياق واحد ، حاجة الفرد وحاجة الجماعة .. فلم يضح بالفرد فى سبيل الجماعة ، فيهزم الغاية بالوسيلة ، ولم يضح بالجماعة ، فى سبيل الفرد ، فيفرط فى أهم وسائل تحقيق الفردية ، وانما جاء تشريعه ، فى جميع صوره ، نسقا عاليا من المقدرة على التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة .

الحرية الفردية المطلقة

كثير من الفلاسفة يرى أن الحديث عن الحرية المردية المطلقة نافلة من القول ، والا فحرية الفرد يجب أن تكون مقيدة ، ان لم نرد لها أن تصبح فوضى .

وأما الاسلام فهو يرى أن الأصل فى الحرية الاطلاق ، واننا حين نتحدث عن الحرية ، من حيث هى ، وفى أى مستوى كانت ، انما نتحدث عن الاطلاق ، من حيث لا ندرى ، ذلك بأن الحرية المقيدة انما

هى نفحة من نفحات الاطلاق تضوعت على أهل الأرض بقدر طاقتهم على احتمالها ، فكأن القيد ليس أصلا ، وانما الأصل الاطلاق ، وما القيد الا لازمة مرحلية تصاحب تطور الفرد من المحدود الى المطلق .

فالحرية فى الاسلام مطلقة ، وهى حق لكل فرد بشرى ، من حيث انه بشرى ، بصرف النظـــر عن ملته أو عنصره ، وهى حق يقابله واجب ، فلا يؤخذ الا به ، وهـذا الواجب هو حســـن التصرف فى الحرية . فلا تصبح الحرية محدودة الا حين يصبح الحر عاجزا عن التزام واجبها ، وحينئذ تصادر فى الحدود التى عجز عنها ، وتصادر بقوانين دستورية .. والقوانين الدستورية فى الاسلام هى القوانين التى تملك القدرة على التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشـــاملة ، فهى لا تضحى بالفرد فى سبيل الجماعة ، ولا بالجماعة فى سبيل الفرد ، وانما هى قسط موزون بين ذلك .. تحقق حين تطبق ، بكل جزئية من جزئياتها ، مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فى آن معا ، وفى ســياق واحد . وانما كان الاطلاق فى الاسلام أصلا لأنه لا يرى لترقى الفرد حدا يقف عنده ، فهو عنده ساير من المحدود الى المطلق ، أو قل مسير من النقص الى الكمال ــ والكمال المطلق . فنهاية العبد فى الاسلام كمال الرب ، وكمال الرب فى الاطلاق ، والله تبارك وتعـــالى يقول « وان ليس للانسان الا ما سعى * وان سعيه ســوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن الى ربك المنتهى » يعنى منتهى السير .. وليس السير الى الله بقطع المسافات ، كما قلنا آنفا ، وانما هو بتخلق العبد بأخلاق الرب ، والله تعالى يقول « يأيها الأنسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » اردت أو لم ترد لقاءه ، وأين يكون لقاؤه ؟ أفى أرضه أم سمائه ؟ لقد قال جل من قائل « ما وسعنى أرضى ولا سمائى،

وانما وســـــعنى قلب عبدى المؤمن . » فأنت اذن انما تلقاه فيك ، وبه لا بك .

وفى ذلك قال المعصـــوم « تخلقوا باخلاق الله ، ان ربى على سراط مستقيم » ..

والله تعـالى يقول « كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون » .

والذى يجعلنا عاجزين عن الوفاء بواجب الحرية الفردية المطلقة انما هو الجهل ، ونحن ، لفرط جهلنا ، نحب جهلنا ، ونكره المعرفة ، الا اذا جاءت عن طريق يناسب هوانا . « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شـيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .. « وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » تشير الى أنانيتنا .. فنحن نحب أنفسنا ، ونحب كل ما يصـدر عنها من حماقات . وكل فرد بشرى هـو ، بالضرورة التكوينية ، أنانى .. وكماله انما يكمن فى هذه النشأة الأنانية ..

وأنانية كل أنانى على مستويين .. مستوى الأنانية الضـيقة ، المتسفلة ، الجاهلة ، ومستوى الأنانية الواسعة ، المتسامية ، العاقلة .

فالأنانى الجاهل قد يرى مصـلحته فى أمور تخالف مصـالح الجماعة ، واذا اقتضى الأمر فهو قد يضحى بمصلحة الجماعة ليصل الى ما يظنه مصلحته هو .. والأنانى العاقل لا يرى مصلحته الا فى أمور تستقيم مع مصالح الآخرين ، فهو يقول مع أبى العلاء المعرى :ـ

ولو انى حبيت الخلد فردا * لما أحببت بالخلد انفـــرادا

فلا هطلت على ولا بأرضى * سحائب ليس تنتظم البلادا

وملاك هذا الأمر التعليم الرشيد فى عبارة المعصوم حين قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ومنذ هذه اللحظة وضع الاسلام نفســـــه ضد الأنانية الجاهلة ، ومع الأنانية العاقلة « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » هواه يعنى أنانيته الجاهلة .. « ان اعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك» . «نفسك التى بين جنبيك» تعنى نفسك السفلى ، أو نفسك الدنيا ، فى مقابلة نفسك العليا ، أو نفســـــك الأخرى ، التى يرجع اليها كاف الخطاب فى « ان أعدى أعدائك » فكأنه قال أن أعدى أعداء نفسك الأخرى نفسك الدنيا .. ولأمر ما كثر التعبير فى القرآن بكلمتى الدنيا والأخرى .

وكل ذلــك يعنى الأنانية الجاهلة فى مقابلة الأنانية العاقلة .. وقول الله تعالى « ان هـــذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » يعنى للنفس العليا ، وكذلك قوله « من اهتدى فانما يهتدى لنفســه ، ومن ضل فانما يضل عليها » .

وما دمنا فى منطقة الأنانية الجاهلة ، فان حــريتنا لابد تقيد ، لمصلحة مجتمعنا ، ولمصلحتنا نحن أيضا ، ويجب أن يكون القيد وفق قانون دستورى .. ومن هذا يتضح أن الحرية فى الاســـلام على مستويين : مستوى الحرية المقيدة بقوانين دستورية ، وقد تحدثنا عن القوانين الدستورية ، ومستوى الحرية المطلقة . والحر فى المستوى الأول ، هو الذى يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، على شرط الا تتعدى ممارســـته لحريته فى القول ، أو العمل ، على حريات الآخرين ، فان تعدى تعرضت حريته للمصادرة وفق قوانين دستورية ، جزاء وفاقا .

والحر فى المستوى الثانى هو الذى يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم لا تكون نتيجة ممارســـته لكل أولئك

الا خيراً ، وبركة ، وبراً بالناس ، وأدنى مراتب الحرية الأولى العدل ، وأدنى مراتب الحرية الثانية العفو ، وصاحب هذه لا ينطوى ضميره المحجب على ضغن على أحد ، ذلك لأنه يعلم أن الجريمة انما تبدأ فى الضمير ، ثم تبرز الى حيز القول ، ثم الى حيز العمل • والله تعالى انما يعنى هؤلاء ، ولا يعنى أولئك ، حين قال : « وذروا ظاهر الاثم وباطنه ، ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » وهو أيضا يعنيهم حين قال : « قل انما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن » وهو أيضا يعنيهم حين قال : « وان تبدوا ما فى أنفسكم ، أو تخفوه ، يحاسبكم به الله » ••

وأما أصحاب مرتبة الحرية المقيدة فان حديث المعصوم يعنيهم حين قال « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفوسهم ، حتى يقولوا أو يعملوا »

والحريتان متداخلتان ، فالأولى منهما مرحلة اعداد للثانية ، اذ لا يبلغ الفرد منازلها الا بالتمرس بالمجهود الفردى فى تربية النفس ، بمراقبتها ، ومحاسبتها ، وترويضها لتصبح موكلة بالتجويد ، كلفة بالاحسان • والمراقبة تعنى الحضور مع الله دائما حتى لا تتصرف الجوارح فيما لا يرضيه ، من فكر ، أو قول ، أو فعل ، والمحاسبة تعنى استدراك ما افلت من ضبط المراقبة ، ولما كانت الحرية الفردية المطلقة لا تنال الا بثمنها ، وثمنها ، كما قررنا آنفا ، هو حسن التصرف فى حرية الضمير المغيب ، وحرية القول ، وحرية العمل ، فقد طوع الاسلام عباداته ، وتشاريعه ، لتبلغ بالفرد هذا المبلغ •

الشريعة فى خدمة الحرية الفردية المطلقة

شريعة العبادات كلها شريعة فردية لأن مدارها على الضمير المغيب ، ولا يطعن فى هذا التقرير ان بعض العبادات تؤدى فى جماعة ،

وفى الحق ، ان كل أعمال الاسلام فى العبادات ، والمعاملات ، تركز على الضمير تركيزا أساسيا ، ومن ههنا جاء قول المعصوم . « نية المرء خير من عمله » • فالنية تجرى من العمل مجرى الروح فى الجسد ، فاذا خرجت الروح من الجسد فسد ، وتحلل ، وأصبح هباء منثورا ، والى ذلك الاشارة الكريمة بقوله تعالى « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » ذلك لأنه عمل لا روح فيه ، أو قل لا نية صالحة لوجه الله وراءه •

والخطيئة انما تبدا فى الخاطر ، والخاطر هو حديث الضمير ، فاذا كان الضمير المحجب ينطوى على اثم فان خواطره تكون شريرة ، ثم لا تلبث هذه الخواطر أن تلح على صاحبها حتى ينطلق بها لسانه ، فيكون كلامه شريرا ، ثم لا يلبث هذا الكلام الشرير ان يلح على صاحبه حتى يبرز الى حيز العمل ، فيكون عمله شريرا أيضا ، فاذا كان الفرد يفكر بالشر فى ضميره المغيب ، ويتحدث بالشر ، وتتحرك أعضاؤه بعمل الشر ، فقد وجب ان تسحب حريته ، وان تصادر ، بيد ان هذه المصادرة يجب أن تكون لمصلحته هو أولا ، ثم لمصلحة الجماعة فى المكان الثانى ، وهى انما تكون لمصلحته اذا كان أنما يفيد منها تربية تجعله أهلا لاسترداد حريته من جديد ، مع المقدرة على حسن التصرف فيها •

ومما لا شك فيه ان التشريع ، سواء كان تشريع عادة ، أو تشريع عبادة ، انما هو منهاج تربوى يرتفع ، بالمجتمعات وبالأفراد ، من الغلظة ، والجفوة الى اللطف والانسانية ، وكلما كان الناس غلاظ الأكباد ، بليدى الحس ، كلما شدد عليهم فى التشريع ، وكبلوا بالقيود والأثقال • فلو أن الناس رعوا ما عليهم ، حق رعايته ، لما اعنتوا فى أمر من أمور معاشهم ، ولا أمور معادهم ، والله تبارك

وتعالى يقول « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ، وكان الله شـــاكرا عليما ؟ » لكن حاجـــة الناس الى التربية ، والتأنيس ، والترويض ، هى التى حرمت المحرمات ، وهى التى عزمت العزائم ، وجاءت المحرمات والعزائم وفق الحاجة اليها . وقد تحـــدثنا عن التشديد على الفرد عند نشأة المجتمع البشرى فى سحيق الآماد بما يكفى ، فاذا جئنا الى العصور الحديثة ، عصور الديانات الكتابية التى نعرفها ، نجد أن القاعدة تطرد ولا تتخلف ، فهذا القرآن يحدثنا عن اليهود فيقول « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » ويقول أيضـــا عنهم ، « واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفســكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، انه هو التواب الرحيم » .

فلغلظة أكبادهم ، وبلادة حسهم ، شدد عليهم ، فحرمت عليهم الطيبات ، وفرض عليهم ، فى التوبة ، ان يقتلوا انفسهم قتلا حسياً ، وهو بسبيل مما تحدثنا عنه فى أمر التضـــحية بالفرد البشرى على مذابح العبادة فى أول النشأة .

ولما تقدم الفـــرد البشرى هوناً ما ، وأصبح لا يحتاج كل ذلك التشديد ليتربى ، خفف عنه ، فجاء التشريع فى حق الأمة المحمدية يقـــول « قل لا أجد فيما أوحى الى محرماً على طاعم يطعمه ، الا ان يكون ميتة ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فان ربك غفور رحيم » وقال فى حقهم أيضا ، « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم

بالباطل ، الا أن تكون تجارة ، عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم أن الله كان بكم رحيما » .

فضاقت دائرة المحرمات فى التشريع الأخير ، واختصرت الى أربعة ، كلها خبيث ، ثم تجاوز حتى عن هذه الأربعة للمضطر ، اذا لم يكن باغيا ، ولا عاديا على أحـــد .

ونهى عن قتل النفس ، حين أصبحت تستجيب بأقل من هذا العنف فقال « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » وهو انما كان ، فى شريعته ، بنا رحيما لأننا أصبحنا رحماء « كما تدين تدان » .

وتواصل القاعدة أطرادها فى المزيد من التخفيف على الناس كلما أصبحوا من رهافة الحس بحيث لا يحتاجون الشدة ليتعلموا .. ويبلغ من أمر هذا التخفيف ان ينتقل التحريم من الأعيان الحسية الى صور السلوك المعنوية ، فاسمع القرآن الكريم يحدثنا فيقول : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، أنه لا يحب المسرفين * قل من حـــرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا ، فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، والأثم ، والبغى بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به ســـــــلطانا ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » ويقول ، « وما لكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، الا ما اضطررتم اليه ، وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، ان ربك هو أعلم بالمعتدين * وذروا ظاهر الأثم وباطنه ، ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » .

فاذا المحرم حقا ، وفى آخر الأمر ، هو عيب السلوك ، ونقص الأخلاق ، وانما حرم المحسوس من الأعيان المحرمة كوسيلة لشفاء

النفوس من عيوب السلوك ، ومن نقص الأخلاق ، وذلك على القاعدة الحكيمة التى تطالعنا بها هذه الآية الكريمة ، « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » وحين ينسحب التحريم من الصور الحسية الغليظة الى الصور المعنوية الدقيقة فى عيوب السيرة بين الناس ، يواصل هذا الانسحاب حتى يصل خفايا السريرة ، وما يحوك فيها من خواطر الأثم ، وحين قال « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » انما جاء الأمر بترك ظاهر الاثم فى مكان الوسيلة ، وجاء الأمر بترك باطن الاثم فى مكان الغاية . فكأنه قال : أتركوا ظاهر الاثم لتتمكنوا من ترك باطنه ، لأنه هو مصدر كل الشرور .. ويصل القرآن بمطاردة الاثم الى أغوار السريرة حين يقول « وان تبدوا ما فى أنفسكم ، أو تخفوه ، يحاسبكم به الله » وحين يقول « وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما » والظلم هنا الشرك الخفى ، واليه يرجع كل الشر ، فى جميع صوره ، وانما يكون الشرك الخفى فى سر السريرة ، وأخفى منه ما يكون فى سر السر ، كما يقول أصحابنا الصوفية والقرآن فى ذلك يقول « وان تجهر بالقول فانه يعلم السر ، وأخفى » أخفى من السر ، وهو سر السر . فأسلوب القرآن فى شفاء النفوس من الخطيئة أسلوب عكسى ، يبدأ من الخارج ، ويسير الى الداخل . « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » قوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » يعنى ، فى جملة ما يعنى ، أن السالك فى طريق الله ، يراقب نفسه ، فى أول أمره ، ويحاسبها ، لتترك عيوب العمل ، فى حين انها متورطة ، فى هذه الاثناءة ، فى عيوب القول ، ولكنه يسمح بذلك كنوع من التدريج للنفس ، ثم هو ، ان استقام له

أمر نفسه فى ترك عيوب العمل ، وكان ذلك منها فى سلاسة بينة وانقياد ، زحف بها الى تكليفها ترك عيوب القول ، فى حين انها متورطة ، فى هذه الاثناءة ، فى عيوب الخواطر ، فهى مشوشة الخواطر ، كثيرة الثرثرة الباطنية ، ولكنه يسمح لها بذلك سياسة لها وتدريجا ، اذ كلفها أمرا شاقا فى ترك ثرثرة اللسان ، ثم هو ، ان استقام له أمره على ما يحب فى ضبط لسانه ، بعد ضبط جوارحه ، يكون كل أولئك قد ترك أثرا حميدا فى تهذيب الخواطر فيصبح عليه ان يزحف نحوها فى ثبات وثقة ، يهذبها بعد تشويش ، ويسكنها بعد جيشان ، فان هو استقام له أمره على خير ما يحب ، وسلم صدره من الوساوس وتنقت السريرة ، فقد يبدأ ، بصورة جلية ، الأسلوب الطردى ، بعد أن وصل الأسلوب العكسى الى هذه المرحلة المتقدمة ، ويجىء دور قوله تعالى من الآية السالفة الذكر : « أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » ويكون أغلب نظر الانسان بعد ذلك الى داخله بعد أن كان مشغولا ومهووسا بالخارج • وعند ذلك توشك المطابقة ان تتم بين السيرة والسريرة ، فان نقاء السريرة ينعكس فى استقامة السيرة ، ويبلغ صاحب هذه السيرة عتبة الحرية الفردية المطلقة • وكلما تنقت السريرة ، كلما استقامت السيرة ، فضاقت لذلك دائرة المحرمات ، واندحت دائرة المباحات ، على قاعدة الآية الكريمة ، « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليماً ؟ » فاذا استمر السير بالساير الى نهايته المرجوة ، وهى تمام نقاء السريرة ، وكمال استقامة السيرة ، عادت جميع الأعيان المحسوسة الى أصلها من الحل ، وانطبقت الآية الكريمة ، « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا ، وآمنوا ، وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا ، وآمنوا ، ثم اتقوا ، وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » •

وهذه مرتبة متقدمة من مراتب الحرية الفردية المطلقة ، التى قد طوع كل تشريع الاسلام ليبلغها الأفراد ، ومن أكبر آيات هذا التطويع ان التشريع كله ، وفى كل صوره ، مبنى على المعاوضة ، أو قل القصاص « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ، لعلكم تتقون » والقرآن أيضا يقول ، « ليس بأمانيكم ، ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوء يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ، ولا نصيرا » ويقول « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين ، ان شاء ، أو يتوب عليهم ، أن الله كان غفورا رحيما » ويقول « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وهاتان الآيتان هما قوام الأمر كله ، فى مبنى الشريعة ، وفى مبنى الحقيقة .. يعنى فى عقوبة الدنيا أو ثوابها ، وفى عقوبة الآخرة أو ثوابها .

والقرآن يقول « ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذابا أليما » فسئل عنها شيخ الطائفة الصوفية ، أبو القاسم الجنيد فقال « يسال الصادقين ، عند أنفسهم ، عن صدقهم ، عند الله . » والصدق عند الله مطلق ، والصدق عند الخلق نسبى ، فيجزى كل صاحب صدق بما يبلغ صدقه بالقياس الى الصدق المطلق ، كما قال « ليجزى الصادقين بصدقهم » وهذا الجزاء قصاص فى الشريعة ، وقصاص فى الحقيقة أيضا ، كما وردت الى ذلك الاشارة « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » حياة هنا تعنى زيادة معرفة . فحين تجازون بالخير على ما عملتم من خير ، على قاعدة الحسنة بعشر أمثالها ، أو تضاعف ، وحين تعاقبون على السيئة بمثلها ، أو يعفى عنها ، تزيدون حياة على حياتكم السابقة ، بارتفاع مداركم ، وصفاء عقولكم ، وبسلامة قلوبكم .

وهذه الزيادة فى المدارك ، لدى القصاص فى الشريعة ، لا تحتاج الى عميق فكر ، فهى ظاهرة ، وذلك ان الفرد لا يتعدى على حريات الآخرين ، أثناء ممارسته لحريته ، الا لجهل ، وغباء ، وقصور تخيل .. فمن قلع عين أحد ، أثناء ثورة غضب ، مثلا ، لا يفعل ذلك وهو متخيل تماما لمبلغ الألم ، وفداحة الضرر ، الذى يلحقه بضحيته . فاذا ما أقتص منه ، فوضع فى موضع الضحية ، وقلعت عينه معاوضة منه لفعله ذلك ، فقد تحقق غرضان فى آن معا ، أولهما حفظ حق الجماعة ، بردع المعتدى فى نفسه ، وبجعله نكالا لغيره ، وثانيهما احراز حاجة الفرد الى سعة التخيل ، حيث أعطى الفرصة ليعيش التجربة الاليمة التى فرضها على غيره لقصر فى تخيله شدة الألم ، وفداحة الخسارة ، اللذين تسبب فيهما ، وانه لما لا ريب فيه ان مثل هذه التجربة الأليمة تجعل من يتعرض لها أكثر انسانية ، فى مقبل أيامه ، منه فى سابقتها ، فهو لا يمكن ان يسقط من اعتباره نتائج تصرفه على الآخرين . وهو ، على أيسر تقدير ، سيكف أذاه عن الآخرين ، وقد يحتمل أذاهم أيضا ، وسيكون ، على التحقيق ، كثير الاعتبار لهم ، حين يتصرف ، وقد يقوده هذا الصنيع ، معانا بالعبادة ، الى الكلف بتوصيل الخير اليهم ، وهو خليق ان يجد فى ذلك رضا نفسه ، وطمأنينة قلبه . فأن هو بلغ ذلك فقد وقف على أعتاب الحرية الفردية المطلقة ، بفضل ما أصاب من الوعى وسعة التخيل اللذين أفاده اياهما القصاص . وان هو لم يبلغ هذا المبلغ فحسبه ان يكون واعيا لحدود حريته وحدود حريات الآخرين ، وفى ذلك خير كثير . والمعاوضة فى حد الزنا تقوم على الرجم ، أو على الجلد ، حسب مقتضى الحال ، وذلك ان الزانى حين ذهب يبحث عن اللذه ، حيث كانت ، ومن غير اعتبار لشريعة ، أذيق الألم ليرده لصوابه ، فان موقع الألم من وادى النفس يقوم

على العدوة القصوى ، حين تقوم اللذة على العدوة الدنيا ، وفى شد النفس الى الألم ، حين تتهافت على اللذة المحـــرمة ، اقامة للوزن بالقسط مما يعينها على الاعتدال ، ويجعلها أبعد من الطيش والنزق .

وحد الخمر يقوم على نفس الأصل ، وذلك ان صاحب الخمر حين يسعى فى الغاء عقله ، انما يريد أن يهرب من واقعه ليعيش فى دنيا من صنع أوهامه ، واخيلته المريضة ، فأريد بألم الجلد أن يرده الى واقعه المرير ليعمل عقله فى تغييره ، فان الواقع لا يتغير بالهروب منه ، وانما يتغـــير بمواجهته ، وأعمال الفكر فى تغييره ، والله تعالى يقول « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ثم ان العقل ، وبه وحده استحق الانسان الكرامة على الحيوان ، هو الابن الشرعى للقاح اللذة بالالم ، منذ سحيق الآماد ، وعبر رحلة الحياة الشاقة ، فاذا حاف عليه صاحبه ، فى لحظة من لحظات الضعف ، فأن فى لذع الألم لما يعينه على استعادة مكانه من قيادة السفينة فى خضم الحياة الصخاب ، حتى يبلغ بها بر السلامة .

وقانون المعاوضة ــ القصاص ــ قانون ينبع من أصل فى الحياة أصيل ، فهو ليس قانون دين بالمعنى المألوف فى الأديان ، ونحن حين نقرر ان تشاريع الاسلام مبنية على القصاص ، انما نعنى الاسلام فى حقيقته ، لا فى عقيدته ، والاسلام فى حقيقته ليس دينا بما ألف عن الأديان ، وانما هو علم ، وما مرحلة العقيدة فيه الا مرحلة انتقال الى المرحلة العلمية منه .. مرحلة الشريعة فيه مرحلة انتقال الى مرتبة الحقيقة حيث يرتفع الأفراد ، من الشريعة الجماعية ، الى الشرائع الفردية ، التى هى طرف من حقيقة كل صاحب حقيقة .

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ ، * انا خلقنا الانسان من نطفة امشـــاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعا

بصيرا » .. « هل » تعنى هنا قد و « الانســـــان » تعنى جنس الانسان . « لم يكن شيئا مذكورا » تعنى أنه كان يتقلب فى المستويات الدنيا من الحياة ، لم يظهــر فيه العقل ، الذى عليه انبنى التكليف ، وبه رفع الذكر . و « نطفة امشاج » تعنى الماء الصافى المخلوط بالطين ، ومنه نشأت الحياة فى ظلمات الدهر . واما قوله « نبتليه » فهو روح الآية ، لانه يشير الى الصراع فى البيئة الطبيعية ، بين الحى والقوى الصماء ، وبينه وبين اخوانه فى الحياة ، وهو ما سبقت الاشارة الى جانب منه ، حين تحدثنا عن نشأة المجتمع البشرى ، وهذا الصراع ، قبل ، وبعد نشأة المجتمع البشرى ، كان ولا يزال ، قانونه المعاوضة « القصـــــاص » .

قوله « فجعلناه سميعا بصيرا » اشارة الى العقل ، والى كون العقل وليد الصراع الذى يهتدى بقانون المعاوضة « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ووردت بعد الآيتين السالفتين من سورة الدهر الآية « انا هديناه السبيل ، اما شاكرا ، واما كفورا » .. « اما شاكرا » تعنى مصيبا ، « واما كفورا » تعنى مخطئا ، وهكذا يرتجح العقل فى ارجوحة الخطأ والصواب . وفى ذلك كماله « ان لم تخطئوا وتستغفروا ، فســـيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم » كما قال المعصوم .

وقانون المعاوضة على مستويين : مستوى الحقيقة ، ومستوى الشريعة ، وبينهما اختلاف مقـــدار ، لا اختلاف نـــوع .. فقانون المعاوضـــة فى مستوى الحقيقة قوامه قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وقانون المعاوضة فى مســـتوى الشريعة قوامه قوله تعالى « وكتبنا عليهم فيها ان النفس

بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

وقانون المعاوضة فى مستوى الحقيقة هو الارادة التى بها قهر الله العوالم فأبرزها الى الوجود وسيرها الى الكمال ، وهو الحق الذى ورد كثيرا فى القرآن « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما انذروا معرضون » وهو يقول أيضا ، « خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون » ويقول « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ماخلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » فالحق هو هذا القصاص الذى تحكيه أحكم حكاية الآيتان ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وعبارة « لاعبين » فى الآية السابقة تشير الى ما تشير اليه الآينان من قوله تعالى ، « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق ، لا اله الا هو رب العرش الكريم » وتعنى ان العوالم لابد راجعة الى الله بفعل قانون المعاوضة هذا « ليس بأمانيكم ، ولا أمانى اهل الكتاب ، من يعمل سوء يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . »

وقانون المعاوضة فى مستوى الشريعة محاكاة محكمة لقانون المعاوضة فى مستوى الحقيقة ، وهو يسير معه سيرا مصاقبا ولكنه ، فى سبحاته العليا ، أكمل منه وأدق ، وهو يقع على ثلاث مستويات ، ويحكيه قوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وايتاء ذى القربى » والعدل هو القصاص فى مستوى « العين بالعين ، والسن بالسن » ، « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . والاحسان هو العفو عن المسىء ، « فمن تصدق به فهو كفارة له »

كما ورد فى آية القصاص ، « وايتاء ذى القربى » تعنى صلة الرحم فى معناها الواسع ، وهو رحم الحياة . وهذه المستويات الثلاث تحكيها هذه الآية « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » قوله « جزاء سيئة سيئة مثلها » مستوى العدل من درجة التناصف ، وانما سماها سيئة ليرغب عنها ، حيث أمكن ذلك « ولمن صبر وغفر ، ان ذلك لمن عزم الأمور » وأما قوله « فمن عفا » فهو مستوى الاحسان بترك المسىء ، وهو فوق العدل . واما قوله « وأصلح » فهو يعنى المرحمة بالمسىء ، والتعطف عليه ،والتلطف به ، والمحبة له ، وذلك قمة الصلاح والاصلاح ، وهو أعلى مستويات قانون المعاوضة فى الشريعة .

ولما كان قانون المعاوضة ، فى مستوى الحقيقة ، مرادا به تسيير العوالم الى الله عن طريق الجسد — عن طريق القهر ، فان قانون المعاوضة ، فى مستوى الشريعة ، مراد به تسيير البشر الى الله عن طريق العقل — عن طريق الحرية ، وفى ذلك الكرامة ، كل الكرامة ، للانسان . وفى هذا المقام يجىء حديثنا عن العلاقة بين الانسان والكون .

الفرد والكون فى الاسلام

والعلاقة بين الانسان والكون ظلت مادة التعليم والتعلم ، من لدن فجر الحياة البشرية والى يوم الناس هذا ، ولقد استعان الانسان على استجلاء حقيقة هذه العلاقة بالدين ، وبالعلم المادى ، منذ النشأة ، فالدين والعلم المادى توأمان ، ولدا فى وقت واحد ، ودرجا معا ، وظلا يتعاونان فى مدارج النمو . ولقد كان ميدان العلم المادى لدى الانسان الأول ضيقا جدا ، وميدان الدين واسعا ، فهو قد اعتنق

جميع مظاهـــر الحياة المادية فى البيئة الطبيعية ، وفيما وراء المادة بالقدر الذى تعطيه الأحلام فى النوم ، وتوحيه الأوهام فى اليقظة ، وهو لم يترك فى حيز العلم المادى الا أشياء قليلة أوحى طول الألفة بأنها لا تحتاج الى كثير احتفاء • كان الانسان يشعر أن لكل شىء فى الوجود روحا ، ورسخت الأحلام فيه هذا الشعور ، حتى لقد أصبح يصلى لكل شىء •• يصلى للصيد ، ويصلى للزراعة ، ويصلى للحصاد ، ويصلى لتناول الطعام ، ويصلى للسلاح • ثم أخذت الالفة والعادة تعمل عملها ، فى رفع الرهبة والقداسة عن الأشياء التى اعتادها وقدر عليها ، فدخلت فى منطقة علمه التجريبى ، وأخذت بذلك دائرة العلم تزيد ودائرة الدين تضـــيق ، حتى جاء الوقت الحاضر ، حيث يزعم بعض المغرورين بالعلم الحديث ان الـــدين لم تعد له مكانة فى حياة الانســـــان المتحضر ، وما كفر العلم ، ولكن بعض العلماء كفروا ، برسالة العلم ، وبرسالة الدين معا • ذلك بأن العلم لم يدع انه يبحث عن جوهر الأشياء وحقائقها ، وانما هو يبحث عن ظواهرها وقوانين سلوكها ، فهو يعرف خصائص الكهرباء ولا يعرف كنه الكهرباء • بل ان العلم نفسه قد قرر ان المادة ، كما نعرفها ، انما هى مظهر لأمـــر وراءها لا نعرف حقيقته • فقد قال اينشتاين ان المادة والقوى شىء واحد ، وجاءت التجارب فى انفلاق الذرة بتأييد هذا القول ، فالقوى غـــير معـــروفة الكنه ، وان كانت بعض القـــوانين التى توجـــه سلوكها معروفة •

وفى الحق ان العلم الحديث داع الى الله بلســـان بليغ ، فهو يرينا كل يوم ، كيف ان العالم المحسوس ، اذا أحسن استقصاؤه ، يسوقنا الى عتبة عالم وراءه ، غير محسوس ، أو قل لا تدركه الحواس على النحو المألوف ، ثم يتركنا هناك وقوفا ، فى خشـــوع واجلال ،

نلتمس وسائل غير وســـائل العلم التجريبى المادى ، بها نهتدى فى مجاهيل الوادى المقدس ، الذى يقع وراء عالم المادة التى نعرفها .

أن أرباب القلوب قد سمعوا ان الظواهر المادية تنادى الى الله بصوت عال يقول : انما نحن فتنة فلا تكفروا ! وان مطلوبكم أمامكم فلا تقفوا معنا !

قد أنى للانسان أن يعلم أن البيئة التى يعيش فيها انما هى بيئة روحية ذات مظهر مادى ، وهذا اكتشاف جديد أفاده تقدم العلم المادى الأخير ، وهو اكتشاف يواجه الانسان المعاصر بتحد حاسم ، ذلك بأن عليه أن يوائم بين حياته وبين بيئته هذه القديمة الجديدة ، ان كان لابد له أن يستمر حيا .

لقد كان الانســـان الأول أحكم منا ، فى موقفنا الحاضر ، حين ظن ، أو قل علم ، ان لكل شىء فى الوجود روحا ، والآن ،وقد استدار الوجود دورة تامة ، فان التاريخ سيعيد نفســـه فى الأيام القليلة المقبلة ، وهو ، كما قررنا فى مستهل هذا السفر ، لن يعيد نفسه بصورة واحدة ، وانما يعيدها بصورة تشبه من بعض الوجوه ، وتختلف من بعضها ، عما كان عليه الأمر فى سابقه ، وســـيكون وجه الشبه ، فى الدورة الجديدة ، علمنا ان بيئتنا روحية الجوهر ، مادية المظهـــر . وسيكون وجه الاختلاف ان أدراكنا هذا لن يكون ادراكا ســـاذجا ، جاهلا ، وانما هو ادراك حاذق ، عالم ، به يعود الدين ليعتنق كل نشاطنا ، فى كل صـــغيرة وكبيرة .. يعود علما يتقدم بمنهاج للحياة متكامل ، يخاطب العقل ، ويحترمه ، ويحاول اقناعه بجدوى ممارسة منهاجه فى الحياة اليومية ، فى كل مضطربها ، لأمر معاشـــها ، وأمر معـــادها .

لقد جاء الانسان الى هذه الحياة ولم يكن له فى أمر مجيئه تدبير ، ولا اختيار ، وهو يغادر هذه الحياة ، يوم يغادرها ، وليس له فى ذلك

تدبير ، ولا اختيار .. والله تعالى يحدثنا فى ذلك فيقول ، جل من قائل : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم انكم بعد ذلك لميتون * ثم انكم يوم القيامة تبعثون » وهذه الصورة القرآنية المتكاملة تعطينا صورة لموضعنا من الكون ، اذ نحن مسيرون فيه كالعناصر الصماء تماما ، ولن يكون لنا فضل عليها الا اذا استيقنت نفوسنا أمر هذا التسيير ، ثم اذعنا له ، عن رضا وعن استسلام ، وعن علم ولقد خلقنا الله مستعدين لتحصيل هذا العلم ، ولقد أشار الى هذا الاستعداد بقوله تعالى « ثم أنشأناه خلقا آخر » من الآيات السابقة . وفى موضع آخر جاء البيان الواضح ، حيث قال : « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » فهذا الخلق الآخر انما جاء من نفخ الروح الالهى فيه .

الارادة

والروح الالهى المنفوخ فى البشر هو الارادة .. والارادة صفة متوسطة بين صفتين .. من أعلاها العلم ومن أسفلها القدرة .. وبالعلم والارادة والقدرة أبرز الله العوالم الى حيز الوجود ، وكذلك البشر انما يعملون أعمالهم بالعلم والارادة والقدرة ، فوقع الشبه بين الخالق والمخلوق ، والى ذلك الاشارة بقول المعصوم : « ان الله خلق آدم على صورته » .

والارادة لله بالأصالة ، وللانسان بالأعارة ، وهى هى الامانة التى أشار اليها تعالى فى قوله « انا عرضنا الأمانة على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشـــفقن منها ، وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا » .. « ظلوما » بادعائه لنفســـه ما لغيره ، و « جهولا » بقدر نفسه ، حين ظن انه صـــاحب ارادة ، والذى ورطه فى هذا الظلم ، وهذا الجهل ، خفاء الأمر ، ودقة مأتاه ، ذلك بأن الله ، جلت حكمته ، سير الغازات ، والسوائل ، والجمادات ، تسييرا قاهرا ومباشرا ، « قل أانكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ســـــــواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال لها ، وللأرض ، أئتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع ســـموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

وهـــــذه هى بيئة الحياة ، فلما تهيأ المكان فى الأرض خلق فيها الحياة وأودع فيها « ارادة الحياة » وهى قوة تعمل ، بدوافع حب البقاء ، للاحتفاظ بالحياة .. وقانونها السعى وراء اللذة ، والفرار من الألم ، وأصبح تسيير الله للمخلوقات فى هذا المســـتوى وهو مســـتوى النبات والحيوان ، شـــبه مباشر ، ومن وراء حجاب « ارادة الحياة » وهى انما سميت بارادة الحياة لأنها تتمتع بما يسمى الحركة التلقائية ، وذلك لأن دوافع حركتها ، وقوى حـــركتها ، فيما يظهر ، مودعة فيها . وهى حركة يستخدمها الحى فى تحصيل قوته ، وفى الاحتفاظ بحياته ، والاحتفاظ بنوعه .

ثم لما ارتقى الله تعالى بالحياة الى مرتبة الانســـان ، زاد على

« ارادة الحياة » عنصرا جديدا هو « ارادة الحرية » ، وهى انما تختلف عن ارادة الحياة اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع . ثم سير الله تعالى البشر من وراء ارادة الحياة ، ثم من وراء ارادة الحرية ، وأصبح بذلك تسييره ايانا غير مباشر ، وتدخله فى أمرنا هو من اللطف والدقة ، بحيث تورطنا فى الوهم الأكبر .. فاعتقدنا أننا نملك ارادة حرة مستقلة بالترك أو بالعمل .. واليكم آيات هن آية فى الدلالة على لطف تدخل ارادة الله فى توجيه ارادتنا « اذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيى عن بينة ، وان الله لسميع عليم * اذيريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، انه عليم بذات الصدور * واذ يريكموهم ، اذا التقيتم ، فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى اعينهم ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، والى الله ترجع الأمور » .. فانظروا الى هذا اللطف اللطيف ، من جانب الارادة الالهية القديمة ، اذ تتدخل فى تسيير الارادة البشرية المحدثة !!

فالنبى يرى أعداءه فى منامه قليلين فيصمم على مقاتلتهم . ولو رآهم غير ذلك ما قاتلهم ، ثم عند اللقاء ، يرى المؤمنون المشركين قليلين فيصمموا على قتالهم ، ويرى المشركون المؤمنين قليلين فيصمموا بدورهم على قتالهم . والله هو الذى يرى النبى أعداءه فى منامه قليلين ، والله هو الذى يرى كل فريق من الفريقين أعداءه قليلين ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا . كل ذلك من غير ان تنزعج « ارادة الحرية » ومن غير أن تشعر بتدخل خارجى فى أمر من أمورها ، يملى عليها ، أو يسلبها حريتها .

خلق الله الانســـان ضعيف البنية ، وبغير مخالب ولا أنياب . ليكون اعتماده على الحيلة أكثر من اعتماده على القوى الجسدية . وجعل طفولته طويلة ليكون اعتماده على الآخرين أكثر من استقلاله بأمر نفسه . وضعف بنيته ، وطول طفولته الجآه ليعيش فى جماعات ، ولقد تحدثنا آنفا عن نشأة الجماعة ، وكيف أنها أقامت العرف الذى يقيد نزوات الافراد ، ولقد كان القتل الذريع جزاء وفاقا لكل فرد يتورط فى مخالفة العرف الذى ارتضته الجماعة ، وقد يكون غضب الآلهة فى انتظار هذا الفرد بعد موته ، ليذيقه من ألوان العذاب فوق ما أذاقته الجماعة ، ولقد كان الخوف من غضب الجماعة ، ومن غضب الآلهة يؤرق الفرد ، وهــو لا يزال يعمل عمله فى حمل الافراد على ترك مخالفات القوانين .

وبنشأة المجتمع البشرى البدائى دخل صراع فى البنية البشرية بين قوتين .. بين الحيوان القديم الذى يعمــل « بارادة الحياة » ، وقانونها السعى فى تحصيل اللذة بكل سبيل ، وبين الانســـان الحديث الذى يعمل « بارادة الحرية » ،وقانونها تحصيل اللذة التى لا تتورط فى غضب الجماعة ، ولا غضب الآلهة ، بمخالفة العرف المرعى ، مما تكون عاقبته ألما باقيا فى الحياة وبعد الممات .

فاذا كانت اللذة المبتغاة لا تنال الا عن طريق مخــالفة أمـــر الجماعة ، وهو دائما أمر الآلهة ، فان اتجاه ارادة الحرية التخلى عن ابتغاء تلك اللذة ، رجاء الحصـــول على لذة أكبر منها ، من ثواب الجماعة ، ومن ثواب الآلهة ، وذلك خير وأبقى . وبهــذا دخلت فى الحياة القيم التى تجعل الفرد البشرى يضــحى باللذة الحاضرة فى سبيل لذة مرتقبة ، أو يضحى باللذة الحسية العاجلة فى ســبيل لذة معنوية عاجلة أو مؤجلة ، كرضا المجتمع عنه ، وثقته به ، وثنائه عليه ،

أو كرضـــا الآلهة عنه ، ومجازاتها اياه ، فى هذه الحياة ، أو فى الحياة المقبلة .

واستمر المجتمع البشرى ينمو ومعه ينمو عرفه وعاداته ، ويتحدد هذا العرف ، ويتخذ صورا دقيقة ، وحاسمة ، ويجىء أنبياء الحقيقة ، ويدخل تشريع الحرام والحلال ، واعتبارات الجنة والنار ، وأوصاف الاله . فان أنبياء الحقيقة ، ورسل الانسانية لم يجيئوا ليقولوا للناس أن لهم خالقا ، فأن ذلك قد سبقتهم اليه رسل العقول . ولكنهم جاءوا ليعينوا العقول على معرفة الخالق بتعليمها أسماءه وصفاته وأفعاله .

وأما أنوار العقول فانها قد نشأت من نار الاحتكاك الذى ظل جاريا بين « ارادة الحياة » و « ارادة الحرية » بفعل الخوف القديم ، الذى دفعته فى قلب الانسان الاول القوى الصماء ، التى زخرت بها بيئته الطبيعية التى عاش فيها .

ولقد قلنا ان ارادة الحرية لا تختلف عن ارادة الحياة اختلاف نوع ، وانما تختلف اختلاف مقدار ، ونعنى أن ارادة الحرية هى الطرف الرفيع ، الشفاف ، من ارادة الحياة .. أو قل هى الروح . حين تكون ارادة الحياة بمثابة النفس .. فارادة الحياة حواء البنية البشرية ، وارادة الحرية آدمها ، والعقل هو نتيجة اللقاء الجنسى بين آدمها وحوائها هذين . وفى مرتبة اللقاء الجنسى الذى ينتج العقل فان لارادة الحياة اسما آخر ، هو الذاكرة ، وارادة الحرية هى الخيال . والذاكرة هى حصـــيلة التجارب السوالف جميعها ، ومن ثم فقد أسميناها النفس ، فى موضع آخر ، وقد ورد أن القصاص المراد به تقوية التخيل عند من يحتاج أن يوضع بالقصاص فى موضع ضحيته . والتخيل هو اسم آخر للذكاء ، وهو القدرة الدراكة ، والارادة الكابتة لرغايب النفس التى لا يرضى عنها القانون . والذكاء يعمل فى توجيه

رغايب النفس بفعل الخوف فيه ـ أو قل بفعل الرغبة والرهبة فيه ـ وهو ، كلما احسن السيطرة على رغائبها ، كلما زاد قوة ومقدرة على التمييز • وهى قد تزداد مطاوعة ، أو تزداد تمردا ، تبعا لمقدرته هو على العدل ، أو عجزه عنه ،وركوبه مركب العنف والشطط •

واذ ولد العقل فى بيت منقسم ، من أبوين متشـــاكسين •• أم شهوانية ، جامحة ، شديدة النزوات ، كثيرة الرغايب ، وأب ضعيف ، جبان يسوقه الخوف الى العنف ، فيرد مطالبها فى شدة وصرامة ، قد تبلغ به أن يحيف عليها ويكبتها فى غير موجب للكبت ، فان طفولته لم تكن ســـــــعيدة ، بل كانت طفولة مشردة ، حانقة ، كثيرة الجنوح والانحراف ، وقد ظهرت عليه خصائص أبويه ، وأثر فيه جو البيت الذى ولد فيه ، فجاء منقسما على نفسه أيضا ، بعضه يقف فى مناهضة بعضه الآخر ، وقديما قيل « البيت المنقسم لا يقوم » •

ولقد ترسب الخوف فى أغوار النفس منذ نشأة الحياة ، وقبل ظهور البشر على مسرحها ، ثم نشـــب الصراع الطويل بين « ارادة الحياة » و « ارادة الحرية » الذى صحب ظهور البشر على مسرح الحياة ، والذى لا يزال يتسعر ضرامه الى اليوم ، ولقد نتج عن هذا الصراع أن بعض الرغائب المحرمة ، والتى كانت تتحرك طليقة قبلا ، قد كبلت بالأغلال ، وكبتت ،وأصبحت حبيسة فى سراديب مظلمة من حواشى النفس • وكل هذه الرغائب أصيلة ، وكثير منها ، لطول ما حبس فى الظلام ، فقد البصر ، وفقد القدرة على الحركة ، ولكنه لم يمت ، وهو ينتظر أن يفرج عنه ، من هذا المحبس يوما من الأيام •

فالنفس البشرية اليوم معرضة لآفات كثيرة •• خوف ترسب فيها قبل أن تصبح بشرية ، وذلك بين فجر الحياة البدائية الأولية ، وعهـــد ظهور البشر على المسرح ، وكبت موروث منذ ظهور المجتمع

البشرى ، والى أن يولد أحدنا ، ثم كبت مكتسب فى حياة الفرد ، بين ميلاده ووفاته ، حيث يتسلط القانون ، والعرف ، والرأى العام على تكبيل رغائبه التى لا تجـــد الموافقة على تحـركاتها ، وتعبيراتها فى حرية وطلاقة .

وكل الكبت بفعل الخوف ، فالخوف ، سواء كان الخوف البدائى ، الساذج ، الذى لا مبرر له ، أو كان الخوف العاقل ، الموزون ، المعروف الأسباب ، المعقولها ، قد ترك طابعه على النفس البشرية بصـــورة مـــزمنة .

والخوف ، من حيث هو ، هو الأب الشرعى لكل آفات الأخلاق ومعايب السلوك ، ولن تتم كمالات الرجـــولة للرجل وهو خائف ، ولا تتم كمالات الأنوثة للأنثى وهى خائفة ، فى أى مستوى من الخوف ، وفى أى لون من الوانه ، فالكمال فى السلامة من الخوف .

ولن يتم تحرير الفرد من جميع صـــور الخوف الموروث الا بالعلم .. العلم بدقائق حقيقة البيئة الطبيعية التى عاش ، ويعيش فيها ، والتى كانت سببا مباشرا لترسيب الخوف فى أغوار نفسه ، فأن الخوف جهل والجهل لا يحارب الا بالعلم .. ومن أجل ذلك وجب الاهتمام باعطاء الفرد صورة كاملة ، وصحيحة ، عن علاقته بالمجتمع ، وعن علاقته بالكون ، وهو ما نحن بصدده منذ حين .

الجبر والاختيـــار

ومسألة الجبر والاختيار ، أو التســيير والتخيير ، تمثل جماع العلاقة بين الفرد والكون ، وهى مشكلة أعيت دقائقها الفكر البشرى فى جميع عصوره ، وقدأنى لها أن تبرز من جديد ، وأن تستحوذ على

كل اهتمام المفكرين ، ذلك بأن ضرورة فهمها ، فهما دقيقا ، لا تجىء من قبيل الترف الذهنى ، كما قد يتبادر الى بعض العقول ، ولا هى مسألة لا تعنينا فى أمر معيشتنا اليومية ، أثناء الكسب والصرف ، كما قد يتبادر الى بعض العقول الأخرى ، وانما ضرورة فهمها تجىء من الحاجة الى المنهاج العملى لتحقيق الحرية الفردية المطلقة ، والحرية الفردية المطلقة هى منذ اليوم المركز الذى منه تتفرع ، وتشع الحرية الجماعية ، بجميع صورها ، وفى كافة مستوياتها ، تدخل فى ذلك معيشتنا اليومية ، أثناء الكسب وأثناء الصرف .

والسؤال المزمن هو ، هل الانسان مسير الى مصير مبرم ؟ أم هل هو مفوض اليه ليختار فى أمر مستأنف ؟

لقد قرر المعصوم فى هذا تقريرا فيه لحاجة المؤمن غناء ، كل الغناء ، وذلك حين قال : « من آمن فقد آمن بقضاء وقدر ، ومن كفر فقد كفر بقضاء وقدر ، رفعت الأقلام ، وحفت الصحف » ولما قال بعض الأصحاب « ففيم التعب اذن يا رسول الله ؟ » قال « أعملوا فكل ميسر لما خلق له ! » فانصرف الاصحاب لعملهم ، واعتصموا بايمانهم ، فعصمهم ووسعهم . « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » .

فحاجة المؤمن مكفية بالايمان نفسه ، ولكن حاجة المسلم هى التى تحتاج الى مزيد من العلم يدخل بها مداخل اليقين ، ويحرز لها طمأنينة القلب . ألم تر الى ابراهيم الخليل « واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ! ولكن ليطمئن قلبى ! قال فخذ أربعة من الطير ، فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزء ، ثم ادعهن ، يأتينك سعيا ، وأعلم أن الله عزيز حكيم . »

ولقد خلف من بعد الأصحاب ، خلف لم يسعهم فى هذا الأمر ما وسع الأصحاب ، فبدا لبعضهم ، وهم أصحاب الرأى ، أن التسيير المطلق مع العقاب على الخطيئة يشبه قول من قال :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له اياك اياك أن تبتل بالمـــاء

وهذا ظلم ، ولما كان الله تبارك وتعـالى منزها عن الظلم ، ولما كان العقاب على الخطيئة ثابتا ، فى الشريعة وفى الدين ، فلم يبق الا أن يكون الانسان متمتعا بشىء من الاختيار ، به يستحق العقاب ، حين يخطىء ، ويستأهل الثواب ، حين يصـيب • وكذلك اعتقدوا ، فتورطوا فى الشرك من حيث أرادوا التنزيه •• ومد لهؤلاء فى غيهم أمران : أولهما أن البداهة ، وظاهر الأمر ،توحى بأن للانسان اختيارا يبدو فى حركاته الاختيارية ، فهو يستطيع أن يمشى ، ان شاء ، أو ان يجلس ، أو أن يقف ، هذا الى جملة حركات أخرى ، وسكنات ، كلها تقع تحت اختياره وارادته • وثانيهما أن ظواهر القرآن تقر الانسان على ما أعطته اياه هذه البداهة المعاشة •

وهناك أصحابنا الصوفية ، وهم ، فى عمومهم ، قد حاولوا أن يكتفوا ، من هذا الأمر ، بما اكتفى به الأصحاب ، ولكن حكم الوقت ، والحاح الفرق الأخرى ، قد اضطر بعضهم أن يقرر أن الانســـان مسير ، فى كل صـــغيرة وكبيرة من أموره ، وانه مع ذلك ، معاقب بالاساءة ، مجازى بالاحسان • وليس الله ، فى كل أولئك ، بظالم ، لأنه لم يتصرف فى ملك غيره • واضطر البعض الآخر أن يقرر التسيير المطلق مع العقوبة ، ثم خرج عن مسألة الظلم هذه بقول الله تعالى ، « لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون • »

وأجمع كبار عارفيهم على أن التوفيق بين التسيير المطلق ، وهو أمر يوجبه التوحيد ، والعقاب ، والعدل الالهى ، انما يلتمس فى حكمة

العقاب • وذهبوا فى البيان مذاهب كانت وافية بحـــاجة عصرهم ، والعصور التى تلته الى يومنا هذا ، ولكننا ما نرى أنها تكفى حاجـة الفكر الحديث ، منذ اليوم •

القرآن والجبر والاختيار

ولقد بنى أصحاب الرأى رأيهم على القرآن ، وســـاقوا منه آيات بينات للتدليل على صدقهم ، ولقد بنى الصوفية ، وهم يقفون من أصحاب الرأى موقف النقيض من النقيض ، مذهبهم على القـرآن أيضا ، وساقوا منه آيات بينات للتدليل على صدقهم • ولقد ورطت هذه الظاهرة الغريبة كثيرا من المستشرقين ، ممن عنوا بدراســـة القرآن ، فى خطأ جسيم ، فظنوا أن بعض القرآن يناقض بعضـا ، وأسرفوا فى ذلك على أنفسهم ، وعلى مواطنيهم ، والحق ، فى هـذا الأمر ، أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، فظاهره عنى بظواهر الاشـــياء ، وباطنه قام على الحقائق المركوزة وراء الظواهر ، ثم اتخذ ، فى نهجه التعليمى ، الظواهر مجازا يعبر منها العارف الى البواطن ، وهو فى ذلك يقول « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » والظواهر هنا آيات الآفاق ، والبواطن آيات النفوس • وأبواب العقل على آيات الآفاق هى الحواس ، والحواس قد جـــاءت كلها مثانى ، من يمين وشمال ، على تفاوت فى القوة بينهما ، فينتج عن هذا أن ماتؤديه العين اليمنى ، الى العقل ، من الشىء المرئى ، يختلف عما تؤديه العـــين اليسرى منه اليه • وليست صحة الأمر بينهما • وهـــذا يعنى أن تجرى غربلة فى العقل ، بها يتخلص مما يسمى خـــداع الحواس ، ويخلص الى الأمر على ما هو عليه فى الحق •

وكثير من العقول الساذجة لا تملك القدرة على الانعتاق من أسر الحواس ، والعقول ، على اطلاقها ، شـديدة الاعتماد على معطيات الحواس ، ولما كان القرآن كتاب عقيدة ، وشريعة ، وحقيقة ، ولما لم تكن الى حقيقته من سبيل الا عن طريق عقيدته ، فشريعته ، ولما لم يكن من مصلحة العقيدة أن تصادم دعوتها ما تعطيه البداهة المشاهدة بالعين ، فانه جاءنا بظاهر يجارى الوهم الذى اعطتنا اياه الحواس عن عالم الظاهر ، وبباطن يرتكز على الحق الصراح • وهو ، بمجاراتنا فى وهمنا ، انما أراد أن يدفع عنا المشقة ، حيث لم يكن موجب للمشقة، ريثما ينقلنا ، على مكث ، الى الحق • ولنسق على ذلك مثلين : مثلا فى مستوى مجاراة وهم الحواس ، وهو وهم غليظ ، ومثلا فى مجاراة وهم العقل ، وهو وهم دقيق : فأما المثل الاول ، فأن القرآن عندما جـاء يدعو الى العقيدة قوما يرون بأعينهم ان الأرض مسطحة ، لم يشأ ان يجمع عليهم ، الى مشقة الدعوة الى عقيدة فى الاله جديدة ، مشقة الدعوة الى فكرة جديدة ، عن الارض ، تناقض البديهة المرئية بالعين ، فجاء فى سـياقه بآيات عن الارض لم تزعج المدعوين عما ألفوا من أمرها ، فقال « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسـعون ❊ والأرض فرشناها فنعم الماهدون » وقال « ألم نجعل الأرض مهادا ❊ والجبال أوتادا ؟ » وقال « والأرض بعد ذلك دحاها ❊ أخـرج منها ماءها ومرعاها » وقال « والأرض مددناها ، والقينا فيها رواسى ، وانبتنا فيها مـن كل شيء مـوزون » ، فاذا دخلوا فى العقيدة ، وعملوا بالشريعة ، تبين لهم ان الأرض ليست مسطحة الا فيما ترى العين ، وليس الى الحقيقة من سبيل اذا أسقطنا ما ترى العين ، كل الاسقاط ، من حسابنا ، كما أنه ليس الى الحقيقة وصـول اذا ظللنا أسرى أوهام الحواس ، وانما الرشد ان نجعل ما ترى الابصار مجازا الى

ما ترى العقول ، وما ترى العقول مجازا الى ما ترى القلوب ، وهـو الحق ، ثم هو الحقيقة ، فى الفينة بعد الفينة .

والمثل الذى يجارى وهم العقل تعطيه هاتان الآيتان ، « لمن شاء منكم ان يستقيم * وما تشاءون الا أن يشـاء الله رب العالمين » فأن السالك المجود ، وهو فى اول الطريق ، اذا قرأهما فهم من أولاهما ان له مشيئة مستقلة تملك ان تستقيم ، كما تملك ان تلتوى ، ولم يفهم من ثانيتهما الا ما تعطيه اللغة ، فيجتهد فى سبيل الاستقامة فى تشمير وجد . حتى اذا نضجت تجربته بالمجاهدة ، ومصابرة النفس ، علم يقينا انه لا يملك مع الله مشيئة ، واصبح الخطاب فى حقه ، ساعتئذ ، قوله تعالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين » ويعرف أن قوله تعالى « لمن شاء منكم أن يستقيم » قد أصبح فى حقه منسوخا ، بعد أن تخلص من وهم عقله . هذا مع الفهم الأكيد للحكمة التى من أجلها جاءت هذه الآية الكريمة .

فالقرآن ساق معانيه مثانى .. معنى قريبا فى مستوى الظاهر ، ومعنى بعيدا فى دقائق الباطن ، ولكن أصحاب الرأى لم يفطنوا الى ذلك ، فجعلوا الآيات التى تجارى أوهام الحواس ، والتى تجـارى أوهام العقول ، سندهم ، وبنوا عليها علمهم ، فضلوا كثيرا ، وأضلوا .

وأما الصوفية فقد تفطنوا الى ذلك ، وعلموا أن أوهام الحواس ، وأوهام العقول ، يجب التخلص منها بأساليب العبادة المجودة ، التى تبلغ بهم منازل اليقين المحجبة بحجب الظلمات ، وحجب الأنوار .

القرآن والتسـيير

« وننزل من القرآن ما هو شـفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسـارا » ومن الظالمين من يعتمد على العقل ، فى فهم

حقائق الدين ، كل الاعتماد .

والقرآن قد جعل وكده تركيز فهم التسيير فى العقول ، بالطائفة المستفيضة من آياته ، فاذا استقرت مدركات العقول فى طوايا الصدور ، ظهر أن ليس فى القرآن حرف لا يدعو الى وحدة الفاعل .. فوحدة الفاعل هى أصل التوحيد ، وقاعدته ، وبتجويد وحدة الفاعل تتبع كل مستويات التوحيد الأخرى . وأمر التسيير هو وحدة الفاعل هذه . فلنستمع الى طائفة من هذه الآيات « هو الذى يسيركم فى البر ، والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، ، دعوا الله ، مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون . »

هذا أوضح كلام فى التسيير الالهى للناس ، وقد أشار اشارة لطيفة الى علة الغفلة ، وهى سعة الحيلة ، فأننا اذا احتلنا فى أمورنا ، ونجعت حيلتنا فى حل مشاكلنا ، مد لنا هذا النجاح فى أسباب الغفلة ، فتوهمنا انا أصحاب ارادة مختارة . والحيلة فى البر أوسع منها فى البحر ، ولذلك قال « هو الذى يسيركم فى البر والبحر » ثم ذهب يفصل أهوال البحر التى تظهر أمامها قلة حيلتنا وعندها « دعوا الله ، مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » فلما جاءت دعوتهم بلسان حالهم أنجاهم ، تبارك وتعالى ، ثم قص علينا ما كان من أمرهم فقال « فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » يعنى لما خرجوا من أهوال البحر ، ووطئوا البر ، واستشعروا القدرة على الحيلة ، رجعت اليهم غفلتهم ، وادعوا ارادة واختيارا .

وهو هنا يذكرنا بأن الذى يسيرنا فى البر هو الذى يسيرنا فى البحر ، فيجب ألا نكون من الغافلين .

وقوله تعالى « انى توكلت على الله ، ربى وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربى على صراط مستقيم » وقوله تعالى « أفغير دين الله يبغون ، وله اسلم من فى السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون ؟ » وقوله تعالى « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » وقوله تعالى « تسبح له السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن ، وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا » وقوله تعالى « والله خلقكم وما تعملون » أى خلقكم وخلق أعمالكم . وقوله تعالى « ما اصاب من مصيبة فى الأرض ، ولا فى أنفسكم ، الا فى كتاب ، من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولاتفرحوا بما آتاكم ، والله لايحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فأن الله هو الغنى الحميد » وفى جميع هذه الآيات حكمة تربوية بالغة ، يستفيد منها من يستيقن أمر التسيير .

التسيير ما هو ؟

أول ما يجب توكيده هو ان الله لا يسير الناس الى الخطيئة ، وانما يسيرهم الى الصواب ، قال تعالى عن لسان هود « انى توكلت على الله ، ربى وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربى على صراط مستقيم . » ومعنى هذا أن الله مسير كل دابة على الصراط المستقيم ، وكل دابة مهتدية ، حالا ، ومآلا ، ما دامت فى طاعة الله ، وليس شىء فى الوجود بمفلت عن هذه الطاعة ولكن الله تبارك

وتعالى يريد أن يكون المطيع مدركا لهذه الطاعة ، وبهذا وضع خط فاصل بين الهدى والضلال ، ما دونه ضال ، ومن فوقه مهتد ، وهنا دخل اعتبار الايمان والكفر • وليس الاختلاف بين الايمان والكفر اختلاف نوع ، وانما هو اختلاف مقدار ، فالمؤمن علمه أكثر من الكافر •• أو قل ان المؤمن يطيع الله وهو عالم بذلك ، والكافر يطيع الله وهو جاهل بذلك ، والله تعالى يقول « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ، وهوالعزيز الحكيم » هو يعلم ذلك ولكنهم لايعلمون ، وهو يريد لهم أن يعلموا • و « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » •

ان ارادة الله لا تعصى ، ولكن الله يريد أن ينقل الخلائق من طاعة ما يريد ، الى طاعة ما يرضى ، فانه سبحانه وتعالى أراد شيئا لم يرضه • فهو تعالى يقول « ان تكفروا فان الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وان تشكروا يرضه لكم • » فكأنه يقول ، ان تكفروا فانكم لم تكفروا مغالبة لله ، وانما كفرتم بارادته ، ولكنه لا يرضى منكم ما أراده لكم • والرضا هو الطرف الرفيع من الارادة • أو هو قمة هرم قاعدته الارادة ، فالارادة فى مرتبة « الثنائية » ، والرضا فى مرتبة « الفردانية » ، ففى الارادة يدخل الكفر والايمان ، ولكن بالرضا لا يدخل الا الايمان •

والأمر التكوينى أعلى من الارادة • فقمته رضا وقاعدته ارادة فهو هرم مكتمل ، وتفصيل ذلك يجىء فى آخر يس حيث يقول جل من قائل «انماأمره اذا أراد شيئاان يقول له كن فيكون» • والأمر التشريعى يمثل قمة هرم الأمر التكوينى ، حين تكون قاعدته ارادة ، والله تعالى حين قال « واذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » انما أراد بالأمر هنا الأمر التكوينى

فى مستوى قاعدة هرمه ، وهو ارادة . وحين قال « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها، قل ان الله لايأمر بالفحشاء، أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ » انما أراد الأمر التشريعى ومعنى « ان الله لا يأمر بالفحشاء » ان الله لا يرسل رسلا ، ويؤيدهم بالمعجزات ، ثم تكون شرائعهم داعية الى الفحشـــاء « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم ، والنبوة ، ثم يقـــول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعـــلمون الكتاب ، وبما كنتـــم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ؟ » .

فالأمر التشريعى دعوة لاخراج الناس من ارادة الله الى رضـــاه تعالى ، ومن اجل ذلك أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وقال فيها « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشـــاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ..

ومع أن الأمر التشريعى وحدة ، اذا ما قورن بالارادة ، فأنه ، لدى النظر الدقيق ، ذو شكل هرمى أيضا ، قاعدته الشريعة الجماعية ، وقمته الشريعة الفردية ، وقمة هرم الأمر التشريعى هذه ، تكون لقمة هرم الأمر التكوينى قاعدة ، وهذا الأخير قمته عند الله ، حيث لاحيث . والى هذه القمة الدقيقة ، الممعنة فى الدقة ، الاشارة بقوله تعالى « انا كل شىء خلقناه بقدر ، وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » وهكـــذا يظهر بوضوح هرم الكائنات ، قمته التنزل الأول الى مرتبة الاســـم ، وهو مرتبة الشريعة الفردية وقاعدته التنزل الأخير الى مرتبة الفعل ، وهو مرتبة التعدد ، فى الأحياء والعناصر ، وأسفل الســـافلين فيها الدخان ، وهو بخار الماء ومنه خلقت الأشياء ، والأحياء . قال تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض أئتيا طوعا أو

كرها ، قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصـــابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » وأدنى من ذلك الى قاعدة هرم الخليقة قوله تعالى عن هذا الدخان « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون ؟ » وحين كانت قمة هذا الهرم عند الله فقـــد كانت القاعدة بعيدة عنه ، وليس البعد هنا بعد مسافة ، وانماهو بعد درجة . فقمة هرم الخليقة ، وهى مرتبة الشريعة الفردية ، فى عالم الملكوت . وقاعدة الهرم فى عالم الملك، وعالم الملكوت مهيمن على عالم الملك ، حتى أن عالم الملك بمثابة الظلال لعالم الملكوت ، فعالم الملك هو عالم الظاهر ، وعالم الملكوت هو عالم الباطن ، أو قل عالم الملك هو العالم المحسوس ، حيث التعدد ، وعالم الملكوت هوعالم المعانى، حيث الوحدة، وليس معنى هذا أن ليس فى عالم الملكوت محسوس ، ولكن معناه أن محسوسه هو من اللطف بحيث لا يحس الا بالحاسة السابعة .. وسلطان العاشقين ، ابن الفارض انما عنى هذا اللطف اللطيف حين قال :

ولطـــف الأوانى فى الحقيقة تابع
للطف المعانى والمعانى بها تنســـو

ذلك بأن لكل معنى حسا ، ولكل حقيقة شريعة ، فكل معنى من المعانى ، أو حقيقة من الحقائق هى ذات شـــكل هرمى ، له قمة وله قاعدة ، وكلما دقت القمة دقت القاعدة تبعا لذلك ، أو قل ، ان شئت ، كلما دق المعنى دق الحس .

قال تبارك وتعالى « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، واليه ترجعون » فملكوت كل شىء هو فرديته . واليه ترجعون توكيد لهذا الفهم ، لأن الرجوع الى الله انما يكون بتقريب صفات العبد من صفات

الرب • فكأن الخلائق مسيرة الى فرديانها بجمعيتها ، من التعـــدد فى الوحدة ، بفضل التوحيد •

قوله تعالى « والتين والزيتون ❋ وطور سينين ❋ وهذا البلد الأمين ❋ لقد خلقنا الانســـان فى أحسن تقويم ❋ ثم رددناه أسفل سافلين ❋ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم اجر غير ممنون ❋ فما يكذبك بعد بالدين ❋ أليس الله بأحكم الحاكمين » •• لقد ذكرنا أن ظاهر القرآن عنى بآيات الآفاق ، وباطنه عنى بآيات النفس البشرية • والكرامة عند الله للبشر ، وليست للسموات ولا للأرض ، بل ان النملة عند الله اكرم من الشمس ، لأن النملة دخلت فى ســـلسلة من الحياة والموت ، لم تتشرف بها الشمس ، وهى تتطلع اليها ، وترجوها بشـــوق النفس • ومن أجل ذلك فانا لن نتحدث عن تفسير الظاهر فى هـــذه الآيات ، ومن اراده فليلتمسه فى أى من كتب التفاسير ، فهو مبذول •

أقسم الله بنفسه حين أقسم بقوى النفس البشرية « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به ، والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » وهذه النفس الواحدة التى خلقنا منها انمـــا هى نفسه تبارك وتعالى • و « التين » النفس ، و « الزيتون » الروح ، و « طور سينين » العقل ، و « هذا البلد الأمين » القلب ، • وقد أسلفنا القول بأن العقل هو نتيجة لقاح النفس والروح ، ونقول هنا أن العقل هو طليعة القلب ، ورائده الى المعرفة ، وهو له بمثابة عكاز الأعمى ، يتحسس به الطريق ، أو قل ، ان شئت ، ان العقل يقوم من القـــلب مقام الحواس منه هو • وهو حين يقوى ، ويستحصد ، ويصبح يتلقى مداركه عن الحواس جميعها فى كل لحظة ، يصير الحاسة الســـادسة المرتقبة ، ذلك بأن الحياة انما بدأت بحاســـة واحدة ثم تقدمت ، فى

سحيق الآماد ، الى الحاسة الثانية ، فالثالثة ، فالرابعة ، فالخامسة ، وهى منطلقة فى طريقها الى الحاسة السادسة ، ثم الحاسة السابعة ، وتلك نهاية المطاف • ولا يكون الترقى بعدها الا بتطوير هذه الحواس السبع نفسها ، لا بزيادة فى العدد عليها • فالحاسة السادسة اذن هى العقل ، حين يستحصد ، ويصبح قادرا على أن يذوق ، ويشم ، ويلمس ، ويرى ، ويسمع ، كل شىء ، وفى لحظة واحدة • فاذا بلغ العقل هذا المبلغ ، فانه يعرف قدر نفسه ، ويعلم أن مكانه خلف القلب لا أمامه ، ويسمع ، ويحاول ان يطيع ، قول العارف الجنيد : « وقدم اماما كنت أنت أمامه » • ولكن طاعة هذا الأمر هى أشق الأشياء عليه ، وهى لا تتحقق الا الفينة بعد الفينة ، وفى قمة السلوك المجود • ولا يطول المكث فيها ، اذ فيها يرد الخطاب من خضر القلب ، على موسى العقل « انك لن تستطيع معى صبرا » ولكن هذه اللحظة القصيرة ، التى يطيقهاموسى كل فردمع خضره هى زنةالدهر الدهير،لأنهاخارج الدهر •• وهى مقام « ما زاغ البصر ، وما طغى » وعندها يشاهد السالك من ليس يحويه الدهر •• هذا مقام الشهود الذاتى بسقوط كل الوسائط ، فى تلك اللحظة يبلغ القلب مبلغ الحاسة السابعة وفيها يكون السالك وترا •

ثم لن يلبث العقل أن يدركه ضعفه ، فيجهل قدر نفسه ، ويتقدم على القلب ، وعندها يصبح العابد شفعا ، ويحجب بأنوار العقل عن شهود الذات ، ولا يشهد الا تجلياتها فى مرتبة الاسم ، أو فى مرتبة الصفة ، أو فى مرتبة الفعل ، وادناها مرتبة وحدة الفاعل ، والسالك فى مراتب حجب النور صاحب شرك خفى ، وهو صاحب شريعة فردية ، ومن ثم فهو فى ملكوته •

قوله تعالى من الآيات السوالف « لقد خلقنا الانسان فى احسن

تقويم » اشارة الى خلقه فى عالم الملكوت ، وهو قمة هرم الخليقة ، وذلك فى عالم الأمر ، وقوله « ثم رددناه أسفل سافلين » اشارة الى خلقه فى عالم الملك ، وهو قاعدة هرم الخليقة ، وذلك عالم الخلق « الا له الخلق والأمر » وعالم الخلق هو أيضا الذى اشار اليه بقوله « انا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » وقصة الخلق فى أحسن تقويم ، ثم الرد الى أسفل سافلين ، تحكيها هذه الآيات « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال أنى اعلم مالا تعلمون * وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم * قال يا آدم انبئهم باسمائهم، فلما انبأهم بأسمائهم قال ، ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات ، والأرض وأعلم ماتبدون ، وماكنتم تكتمون ؟ * واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس ، أبى واستكبر ، وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ، ومتاع الى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعا ، فأما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون * والذين كفروا ، وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون » .

خلق آدم فى عالم الأمر كاملا ، وعالما، وحرا، وكانت حريته منحة لم يدفع ثمنها ، فأمتحنه الله ليرى كيف يصنع فيها ، فقال « يا آدم

اسكن انت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » وكانت الشجرة التى نهى عنها هى نفسه ، فى الباطن ، وزوجه فى الظاهر ، فلم يحسن التصرف فى حريته فيؤثر أمر الله على امر نفسه ، وانما اختار نفسه عن ربه ، وفسق عن أمره ، واتصل بزوجه ، فصودرت حريته ، اذ عجز عن حسن التصرف فيها ، وهبط الى حيث يلقى عقوبة المخالفة ، وحيث يبدأ فى استرداد حريته بدفع ثمنها ، حتى تكون عزيزة عنده ، فلا يفرط فيها مرة أخرى ، لأن الحرية التى لا يدفع ثمنها لا تعرف قيمتها ، ولا يدافع عنها . قال تبارك وتعالى يحذر حبيبه محمدا من حالة آدم « فتعالى الله الملك الحق، ولاتعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه، وقل رب زدنى علما * ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزما» .. «ولقد عهدنا الى آدم» يعنى أخذنا عليه عهداً بأن يحسن التصرف فى حريته فيختار الله دائما . « فنسى ولم نجد له عزما » نسى عهدنا ، وضعف عزمه عن التزام واجب الحرية ، فتهالك امام اغراء زوجه، ورغبة نفسه، فأساء استعمال حريته فصادرناها . و « كذلك نفعل بالمجرمين » .

وحين عصى آدم ربه عن نسيان ، وعن ضعف عن مراغمة النفس ، عصاه ابليس عن قصد مبيت ، وعن استكبار ، ولقد قص الله علينا من خبره فقال « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين * فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم ، اجمعون * الا ابليس ، استكبر ، وكان من الكافرين * قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى ، استكبرت أم كنت من العالين ؟ قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ! * قال فأخرج منها ، فانك رجيم * وان عليك لعنتى الى يوم الدين * قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون * قال فأنك من المنظرين * الى يوم

الوقت المعلوم * قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين * الا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق اقول * لأملأن جهنم منك ، وممن تبعك منهم أجمعين » وقد كان ابليس عابدا ، ولكنه كان متكبرا . فحجب بنفسه ، عن ربه ، ولم تنفعه عبادته ، وكان ابليس عالما ، ولكن علمه كان علم ظاهر ، ولم يصحب بعلم باطن ، ولذلك لم يكن تقيا ، ولا كان ذكيا ، فهو يقسم بعزة الله ، « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين » ثم يستكبر عن طاعة الله .. وهو اذ فاتته التقوى لم يفكر فى الاستغفار، عند المعصية ، وانما فكر فى الاصرار عليها ، وطلب الامهال ليجد الفرصة الى الاغراء بها ، « قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون » ولما قال تعالى « فانك من المنظرين * الى يوم الوقت المعلوم » قال هو « فبعزتك لأغوينهم اجمعين * الا عبادك منهم المخلصين » والآية الأخيرة من دلائل علمه ، اذ علم ان عباد الله المخلصين لا طاقة له بهم ، ولكن علمه كما قلنا علم ظاهر بلا تقوى فى الباطن . وأما آدم وحواء فقد قالا « ربنا ظلمنا انفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » .

ومهما يكن من الأمر فأنهم جميعا قد عصوا أمر ربهم ، وصاروا بالمعصية غلاظا، كثافا غير منسجمين مع تلك البيئة اللطيفة، فهبط بهم وزنهم الكثيف ، من سلم الترقى الى الدرك ، وهو ماسمى فى آيات «والتين» أسفل سافلين ، وكان ترتيبهم فى الهبوط ابليس أولا ، متبوعا بحواء ، ثم آدم ، وفى بيئتهم الجديدة احتوشتهم الشرور ، من كل جانب ، ولكنهم مالبثوا ان تأقلموا ، ونسوا ما كانوا فيه من كمال الا قليلا ، واستجاب الله دعاء ابليس ، فأنظره الى يوم يبعثون ، فلبث فى أسفل سافلين ، من غير ترق منه ، لأنه لم يطلب الترقى ، وانما طلب الانظار . واستجاب الله دعاء آدم وحواء ، فلم يلبثا فى أسفل سافلين الا ريثما

أدركتهما المغفرة والرحمة التى طلباها فى ساعة مخالفتهما أمر ربهما « ان رحمة الله قريب من المحسنين . »

وقد يظن ظان حين يقرأ فى الآيات السوالف من سورة « والتين » قوله تعالى « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون » ان الاستثناء هنا يعنى انهم لم يردوا الى أسفل سافلين ، وهذا خطأ . والحق ان هذه الآية وسابقتها تؤديان المعنى المؤدى بقوله تعالى « وان منكم الا واردها ، كان على ربك حتما مقضيا * ثم ننجى الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثيا » فنجى ، من أسفل سافلين ، آدم وحواء وبدأ ترقيهما ، بفعل المغفرة والرحمة ، وترك أبليس ، حيث لم يفكر فى التغيير .

قوله « فما يكذبك بعد بالدين ؟ » الدين الجزاء ، وهو المعاوضة ، وهو القصاص ، وفيه اشارة الى قانون القصاص ، الذى قلنا أن الاسلام بنى عليه حقيقته ، وشريعته ، والاشارة ترمى الى ارشادنا الى أن الانسان ، انما رد من مقام أحسن تقويم ، الى درك أسفل سافلين ، بحكم قانون المعاوضه ، جزاء وفاقا .

قوله « أليس الله بأحكم الحاكمين » تزكية لقانون المعاوضه ، وتذكير لنا بالحكمة المودعة فيه .

المغفرة لآدم وحواء

كيف غفر لآدم ؟ ان الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فأطاعوا ، وأمر ابليس ان يسجد لآدم فعصا ، فأما الملائكة فقد أطاعوا الأمر التشريعى ، وهم « لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وأما ابليس فقد عصا الأمر التشريعى ، ولكنه بالمعصية ، أطاع الأمر

التكوينى ، وليس له من ذلك بد . والسجود يعنى تسخير الملائكة لآدم ، وتسخير ابليس ، على تفاوت فى التسخيرين . فتسخير الملائكة اعانة على الخير ، وهداية الى الحق ، وتسخير ابليس دلالة على الشر ، واضلال عن الحق ، وآدم متنازع بين الخير من أعلى ، والشر من أسفل ، وهو فى الحالتين ساير الى الله . « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » فالنعم الظاهرة هى العوافى ، والنعم الباطنه هى المصائب .. وكلها رحمة ، وان كانت النفوس تنفر من المصائب ، وترتاح الى العوافى ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم ، وانتم لا تعلمون» ، وكل المصيبة فى نقص العلم.

فاذا تصورت أول مخلوق بشرى قائم على الخط الفاصل بين الحيوانيه والانسانيه ، وتصورته رأس سهم التطور ، فقد تصورت آدم الخليفة فى الأرض ، وهو فى مرحلة من مراحل تطوره من بدايات سحيقة ، ولكنها مرحلة تحولية ، دخلها بقفزة فريدة ، نتجت عن استجماع فضائل شتى ، اختزنها أثناء تطوره الطويل ، المرير ، من تلك البدايات السحيقة ، وتلك القفزة هى المعبر عنها بقوله تعالى « ثم أنشأناه خلقا آخر » من الآيات الكريمات « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وهى بعينها المعبر عنها بقوله تعالى « ونفخت فيه من روحى » من الآيتين الكريمتين « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » . « فاذا سويته » هذه ، تشير ، بأجمال معجز ، الى سلسلة

التطور التى بدأت من بخار الماء ، حيث كانت السمـــوات والأرض سحابة واحدة ، والى أن استعد المكان لنفخ الروح الألهى فيه • ولقد قلنا أن الروح الألهى هو « ارادة الحرية » التى توجت « ارادة الحياة» فارتفع بها الانســـان فجأة فوق الحيوانات العليا • ولم توجد ارادة الحرية فجأة بعد عدم ، وانما برزت بعد كمون طويل فهى بمثابة الزبدة التى مخضها العراك من لبن الحياة ، ولقد تحدثنا عنها آنفا وقلنا انها دخلت فى عراك مع ارادة الحياة ، وان العقل نتيجة هذا اللقاء •

وارادة الحياة نبتت من الأرض ، وعوامل السماء فيها موجودة ، ولكنها أضعف من عوامل الأرض • وارادة الحرية نشأت من الأرض ، ولكن عوامل السماء فيها قوية ، فبها القامة البشرية قامت على الرجلين، وخصصتهما للمشى ، وفرغت بذلك اليدين لمزاولة أعمال ذات صـــلة بالعقل أكبر ، وكذلك استطاعت أن تدير رأسها ، بسهـــولة ، ويسر ، على ما حولها ، وما فوقها ، فترى الشمس والقمـــر والنجـــوم ، وأن تمشى سوية ، تهتدى فى مسالك الأرض ، وفى طرائق السماء « أفمن يمشى مكباعلى وجهه أهدى ، أم من يمشى سوياًعلى سراط مستقيم؟» •

وآدم ، فى الوجود ، متنازع بين الملائكة من أعلى ، والأبالسة من أسفل ، فهو برزخ الوجود كله ، وهو فى ذلك عقل الوجود أيضا ، والله تبارك وتعالى يعنيه حين قال ، جل من قائل « مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ ، لايبغيان » والبحران هنا هما : بحر الأرواح العلوية ، التى أشرقت بالطاعة ، وبحر الأرواح السفلية التى انكدرت بالمعصية •

وعقل آدم ، فى آدم ، متنازع بين « ارادة الحياة » وهى النفس، من أسفل ، و « ارادة الحرية » ، وهى الروح ، من أعلى ، وهو أيضا برزخ ، والله تعالى يعنيه ، فى الآيتين الكريمتين السالفتين ، وهو معناهما الباطن ، وآدم معناهما الظاهر •

والنفس قانونها ابتغاء اللذة بكل سبيل ، واجتناب الألم بكل سبيل أيضا . ولذلك فهى تطيع الأمر التكوينى ، وتثقل عليها طاعة الأمر التشريعى ، لأنه يضع لها الحدود ، وهى فى ذلك أشبهت ابليس .

والروح قانونها الحرام والحلال ، وهى تبتغى من النفس أن تستعصم عن اللذة العاجلة اذا كانت حراما ، وذلك ابتغاء اللذة الآجلة الحلال ، وفراراً من الألم المترتب على تعاطى اللذة الحرام ، سواء كان هذا الألم معجلا أو مؤجلا . ولذلك فهى ترتفع من طاعة الأمر التكوينى ، الى طاعة الامر التشريعى . وهى فى ذلك أشبهت الملائكة .

وآدم ، فى هذه المرحلة البدائية من تطوره ، قيل له كل من هذا ، ولا تأكل من هذا .. أى قيل له هذا حرام وهذا حلال ، فان هو قوى على مراغمة النفس ، وعصا أمرها بالسوء ، واجتنب الحرام ، فقد أحسن التصرف فى حريته ، واستحق أن يزاد له فيها ، والله تعالى يقول « هل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ » وجزاء الاحسان مضاعف ، وذلك محض فضل. اسمعه يقول ، « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها ، وهم لا يظلمون » . وقد تضاعف اضعافا كثيرة ، وقد تضاعف بغير حساب .. اسمعه تبارك وتعالى يقول « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » فههنا الحبة انبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، فذلك سبعمائة ضعف ، ثم قال ، فوق ذلك ، و « الله يضاعف لمن يشاء » كأن يكون سبعة آلاف ضعف ، أو سبعين ألف ضعف ، فاذا قال « والله واسع عليم » فقد خرج عن العدد ، الى السعة المطلقة .

وأن هو لم يقو على مراغمتها ، وضعف أمام اغرائها ، واسترسل فى تحصيل شهوتها الحرام ، فقد اساء التصرف فى حريته ، وعرضها ، ، من ثم ، للمصادرة . فأن كان سوء تصرفه هذا فيه اعتداء على حق من حقوق الجماعة ، صودرت حريته وفق قانون المعاوضة فى الشريعة. وآيته من كتاب الله قوله تبارك وتعالى : « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله مأولئك هم الظالمون » .

وان كان سوء تصرفه انما يقع وباله على نفسه وحدها ، دون غيرها من الأنفس ، صودرت حريته وفق قانون المعاوضة فى الحقيقة ، وآيتاه من كتاب الله فوله تبارك وتعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثتال ذرة شرا يره » . هذا ولا يظنن أحد ان قانون المعاوضة فى الشريعة ، دائما ، كان فى هذا الأحكام الذى وردت به التوراة ، ثم أقره الانجيل من بعدها ، ثم جاء القرآن بتأييده واقراره . ذلك بأنه قانون يتطور مع تطور المجتمع البشرى ، ويتأثر بمستوى دقة العقل البشرى ومقدرته على مضاهاة قانون الحقيقة الذى هو أصله ، والذى كان ، ولا يزال ، فى منتهى الأحكام ، وهو لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

والدقة التى هى حظ قانون المعاوضة فى الحقيقة ، والتى فاتت كثير من صورها على قانون المعاوضة فى الشريعة ، تجد ضبطها فى أن القانونين يعملان معا فى مصادرة حرية من عجز عن الوفاء بحق الحرية ، من غير ان تكون هناك عقوبتان على خطيئة واحدة ، وفى مستوى واحد من مستويات العقاب . وأقرب قوانين المعاوضة فى الشريعة دقة من قوانين المعاوضة فى الحقيقة الحدود ، وهى أربعة ..

الزنا والقذف والسرقة وقطع الطريق .. وترجع الى أصلين هما حفظ العرض ، وحفظ المال ، وهما أول قانونين نشآ فى المجتمع البشرى البدائى ، واليهما يرجع الفضل فى جعل المجتمع ممكنا . ويلى هـذه الحدود حد السكر ، ثم تجىء قوانين القصاص الأخرى فى النفس بالنفس ، والعين بالعين .

ومعاوضة فعل الشر انما تكون بوضع الألم فى مقابلة اللذة من النفس ، والمراد من ذلك وزن قواها حتى تعتدل ، ولاتحيف ، فتتهالك على اللذة بغير كتاب منير .

كيف غفر لآدم ؟

الجواب غفر له باعطائه حق الخطأ . وهذا يعنى أن حـريته لم تصادر مصادرة أبدية فيقام عليه وصى الى نهاية ذلك الأبد ، كما فعل بأبليس ، وانما أذن له فى استردادها ، وبدأ بممارسة ما يطيق منها ، فهو يعمل فى ذلك بين الخطأ والصواب ، فكلما أحسن التصرف فى الحرية التى لديه أوتى مزيدا منها ، وان بدرت منه اساءة فى التصرف تحمل نتيجة سوء تصرفه بعقوبة معاوضة ، ومقابلة للخطيئة ، يراد بها الى شحذ قوى نفسه ، حتى تتأهل ، أكثر من ذى قبل ، لتحمل واجب الحرية فى ذلك المستوى الذى بدر منها العجز عنه .. ثم ان هـذه العقوبة يتجلى فيها اللطف الألهى كمايليق به، فهويجازى بالحسنة عشر امثالها ، وقد يضاعفها حتى تخرج عن الحصر ، وهو لا يجازى بالسيئة الا مثلها ، وقد يعفو عنها ، وقد يبدلها حسنة ، وقد يضاعفها ، بعـد ذلك ، أضعافا لا حد لها ، فهو تبارك وتعالى يقول « والذين لا يدعون مع الله الها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحـق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاما ، يضاعف له العذاب ، يوم القيامة ،

ويخلد فيه مهانا * الا من تاب ، وآمن ، وعمل عملا صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما » ولقد ألهم آدم كلمات فتلهمها ، فكانت سببا الى التوبة ، فالمغفرة ، « فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم » ولقد كانت تلك الكلمات هى « ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا ، وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » .

هذه هى المغفرة لآدم بعد أن أصبح بشرا عاقلا ، ولقد أنفق آدم دهراً دهيراً قبل أن يبلغ هذه المرتبة الرفيعة .. قال تعالى فى ذلك ، « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا * انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا * انا هديناه السبيل ، أما شاكرا وأما كفورا » يعنى قد أتى على آدم عهد سحيق ، لم يكن فيه مكلفا ، ولامسئولا، لأنه لم يبلغ مبلغ العقل ، ولقد تحدثنا عن هذا آنفا ، وقلنا ان الله سير الحياة ، من لدن ظهورها بين الماء والطين ، والى ان بلغت مبلغ العقل ، تسييرا شبه مباشر ، وقانونها يومئذ هو قانون المعاوضة فى الحقيقة ، وآيتاه من كتاب الله ، كما سبق بذلك التقرير ، هما الآيتان الكريمتان « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وهو قانون يعمل دائما على تنمية الخير ، ومحو الشر ، وذلك بسوق الحياة الى كنف الله الرحيم .

هذا التسيير فى مراقى القرب هو المغفرة لآدم ، من لدن النطفة الامشاج ، والى ان اصبح بشرا مكلفا ، فماذا كان آدم قبل هذا ؟ وكيف غفر له ؟ اسمع « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » فقبل أن يصبح آدم نطفة مختلطة بالطين ـ نطفة أمشاجا ـ قد كان ذرة من بخار الماء ، الذى هو أصل الحياة، كما يخبرنا تبارك وتعالى « أولم ير الذين كفروا أن السموات

والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ؟ » وهذه الذرة هي أصل سلالة الطين . وانما غفر له في هذه المرحلة بهذا التسيير المباشر ، بالقهر الارادي ، الذي حفز الحياة الى الله وازعجها الى قربه ، فارتقت المراقي ، وبلغت المبالغ . وقانون هذه الارادة الألهية ، هو قانون المعاوضة في الحقيقة أيضا .

وهذه المغفرة لآدم في مستوياتها المختلفة هي بعينها التسيير ، فالناس مسيرون من مرتبة العناصر الى مرتبة الحياة ومن مرتبة الحياة البدائية الى مرتبة الحياة المتقدمة الراقية المعقدة ، ومن هذه الى مرتبة الحرية الجماعية بدخول العقل في المسرح ، ومن مرتبة الحرية الجماعية ، الى مرتبة الحرية الفردية المطلقة ، والتسيير يطرد في هذه الى غير نهاية ، لأنه سير الى الله في اطلاقه .

التسيير خير مطلق

بدخول العقل في المسرح نشأ قانون المعاوضة في الشريعة ، وهو قانون فج ، اذا ما قيس الى قانون المعاوضة في الحقيقة ، ولكنه يدق ، وينضبط ، كلما قوى العقل واستحصد . وهو القانون الحادث ، ويحكي الارادة البشرية ، المحدثة . وهو انما يستهدف اتمام الانطباق على القانون القديم ، الذي يحكي الارادة الألهية القديمة .. وهيهات !!

والانسان مسير من البعد الى القرب ، ومن الجهل الى المعرفة ، ومن التعدد الى الجمعية ، ومن الشر الى الخير ، ومن المحدود الى المطلق ، ومن القيد الى الحرية .

والتسيير ، من بدايته ، هو رحمة في صورة عدل ، وهو أكبر من العدل ـ « فالرحمة فوق العدل » ـ وقد أسلفنا القول في ذلك .

والتسيير حرية ، لأنه يقوم على ممارسة العمل بحرية «مدركة»

فى مستوى معين ، فاذا أحسن المتصرف التصرف زيد له فى حريته ، فارتفع مستواه بالتجربة والمرانة ، وان لم يحسن التصرف تحمل مسئوليته بقانون حكيم يستهدف زيادة مقدرته على حسن التصرف ، وهكذا ، فكأن الانسان مسير من التسيير الى التخيير ، لأن الانسان مخير فيما يحسن التصرف فيه ، مسير فيما لا يحسن التصرف فيه ، من مستويات الفكر ، والقول ، والعمل .

هناك حديث قدسى جرى من الله تعالى لنبيه داوود : « ياداؤود ! انك تريد ، وأريد ، وانما يكون ما أريد ، فأن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد ، وان لم تسلم لما أريد اتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون الا ما أريد » ولقد قرر الأمر من الوهلة الأولى حين قال ، فى صدر الحديث، « وانما يكون ما أريد ، » فدل بذلك على أن ارادة الله هى النافذة .

وحين قال « فان سلمت لما أريد كفيتك ما تريد » دل على أن ارادة الانسان تكون نافذة المفعول ان هو أراد الله . فان قلت فهل هو يملك أن يريد الله ؟ قلنا هو لا يملك من تلك الارادة الا ما ملكه الله تعالى اياه ، فانه سبحانه وتعالى يقول « ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء » وهو يشاء لنا فى كل لحظة أن نحيط بشىء من علمه ، والى ذلك الاشارة بقوله « كل يوم هو فى شأن » وشأنه هو ابداء ذاته لخلقه ليعرفوه ، وليس يومه أربعا وعشرين ساعة ، وانما يومه وحدة زمنية التجلى ، وقد تنقسم فيه الثانية الى جزء من بليون جزء ، حتى ليكاد الزمن أن يخرج عن الزمن ، كل ذلك وفق ما أودع الله فى المكان من قابلية التلقى ، ولما كان القيد على قابلية التلقى لا يخضع الا لحكمة المطلق ، فهو قيد فى حرية ، وضيق فى سعة ، ومن أجل هذه الرحمة المطلقة فاننا أصبحنا نشعر بأننا نملك ارادة حرة ، وهذا الشعور أوجب علينا أن نحسن التصرف فى حرية ارادتنا

هذه . وحسن التصرف فى حـرية الارادة انما يكون بأن نريد الله ، ولا نريد سواه ، فان نحن قمنا بذلك عن يقين مكتمل .. فكـرا ، وقولا ، وعملا ، فأنه يمدنا بمزيد من حرية الارادة ، وان نحن أسأنا التصرف فى حرية الارادة ، فأردنا سواه ، صادر حريتنا بما يعلمنا كيف نحسن التصرف فى مستأنف أمرنا ، وحسن تصرفنا منه منة ، وسـوء تصرفنا منه حكمة ، وهدف الحكمة أن يستعـد المكان لتلقى المنة ، وكل أولئك انما يجرى فى لطف تأت ، لا ينزعج معه لنا خاطر ، ولا يمحى معه لنا وجـود .

ونحن لا نختار أنفسنا عن الله الا لجهلنا ، وليس الجهل ضربة لازب علينا ، وانما نحن نخرج عنه الى العلم كل لحظة . فأن قـلت فلماذا لم نخلق علماء ، فنكفى بذلك شر الجهل ، وسوء التصرف فى الحـرية ، وما يترتب على سـوء التصـرف من عقـوبة ؟ . قلنا أن العقـوبة هى ثمن الحـرية ، لأن الحرية مسـئولية ، والمسئولية التزام شخصى فى تحمل نتيجة العمل ، بين الخطأ والصواب . ولقد خلق الله خلقاً علماء لا يخطئون ، ولكنهم ليسوا أحراراً ، ولقد نتج عن عدم حريتهم نقص كمالهم ... أولئك هم الملائكة ، فأن الله فضل عليهم البشر ، وذلك لمكان خطئهم وصـوابهم ، أو قل لمكان طاقتهم على التعلم بعد جهل ، والى ذلك الاشارة بحديث المعصـوم « ان لم تخطئوا وتستغفروا فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفـرون فيغفر لهم » فكأن الخطائين المستغفرين هم موضـع نظر الله مـن الوجود ، لأنهم بذلك سيصيرون الى الحرية ، والحرية المطلقة ، وهى حظ الله العظيم .. وكل مقيد مصيره الى الحرية ، والحرية المطلقة فى ذلك ، وكل جاهل مصيره الى العلم ، والعلم المطلق فى ذلك أيضـا . والله تبارك وتعالى يقول « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحـا

فملاقيه » ويقـول « أفحسبتم انمـا خلقناكم عبثا ، وانكم الينا لا ترجعون ؟ » وملاقاة الله ، والرجوع اليه ، لا يكون بقطع المسافات ، وانما يكون بتقريب الصفات ، من الصفات • ومن أجل ذلك قـررنا ان التسيير خير مطلق ، وهو فى حقيقة أمره خير ، فى الحال ، وخير ، فى المـآل •

وسيجىء وقت ينتهى فيه الجهل بفضل الله فى التسيير ، والى ذلك اشار المعصوم حين قال « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، ولعلمتم العلم الذى لاجهل بعده ، وماعلم ذلك أحد !! قالوا ولا أنت ؟ قال ولا أنا !! » قالوا ما كنـا نظـن الأنبياء تقصر عن شىء !! قال « ان الله أجل وأعظم من أن ينال ما عنده أحد !! » وكلما قل الجهل ، وزاد العلم ، قل الشر ، ورفعت العقـوبة ، عـن المعاقبين ، فى تلك المنطقة التى وقعت تحت علمهم •

فالعقاب ليس أصلا فى الدين ، وانما هو لازمة مرحلية ، تصحب النشأة القاصرة ، وتحفزها فى مراقى التقدم ، حتى تتعلم ما يغنيها عن الحاجة الى العقاب ، فيوضع عنها أصره ، وتبرز نفس الى مقام عزها •

وما من نفس الا خارجة من العذاب فى النار ، وداخلة الجنة ، حين تستوفى كتابها فى النار ، وقد يطول هذا الكتاب ، وقد يقصر ، حسب حاجة كل نفس الى التجربة ، ولكن ، لكل قدر أجل ، وكـل أجل الى نفـاد •

والخطأ ، كل الخطأ ، ظن من ظن أن العقاب فى النار لا ينتهى اطلاقا ، فجعل بذلك الشر أصلا من أصول الوجود ، وما هو بذاك • وحين يصبح العقاب سرمديا يصبح انتقام نفس حاقدة ، لا مكان فيها للحكمة ، وعن ذلك تعالى الله علوا كبيرا •

القضاء والقدر

هناك ما يسمى سر القدر ، وهو الطرف الرفيع من القضاء ، ولقد وردت الاشارة اليه فى قوله تعالى « انا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » فالقضاء هو هذا الأمر الواحد الذى خرج عن الزمان والمكان ، كما تفيد عبارة « كلمح بالبصر » والقدر هو تنفيذ القضاء ، وابرازه فى حيز الزمان والمكان ، على مكث ، وتلبث ، وتطوير .

والقضاء والقدر وردت الاشارة اليهما أيضا فى آية أخرى ، وهى قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ، ويثبت ، وعنده أم الكتاب » فقوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ، ويثبت » اشارة الى القدر ، وهى فى ذلك اشارة الى التطور ، بتعاقب صور الكائنات ، فقد أسلفنا الاشارة الى أن الحياة تتقلب فى الصور ، ابتغاء أن تكون ثابتة فى الصور كما هى ثابتة فى الجوهر ، وهيهات !! .. وقوله « وعنده أم الكتاب » يعنى القضاء ، يعنى سر القدر

واليهما أيضا الاشارة بقوله تعالى « وان من شىء الا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم» فقوله «وما ننزله الابقدر معلوم» تعنى القدر ، وقوله « وان من شىء الا عندنا خزائنه » تعنى القضاء ، تعنى سر القدر أيضا .

فالقدر منطقة ثنائية ، حيث الخير والشر ، والعلم والجهل ، ولكن القضاء منطقة وحدة ، حيث يختفى الشر ، ولايبقى الا الخير المطلق ، عند الله ، حيث لا عند . وهذا ما يسمى عند أصحابنا بسر القدر ، وهو أمر لم يكن عندهم مما يصح البوح به ، وذلك مراعاة لحكم الوقت ، وتأدبا بأدبه .

وهناك سابقتان لكل مخلوق : سابقة فى القضاء ، وسابقة فى

القدر .. فأما السابقة فى القضاء فهى خير مطلق لكل الخلائق ، وأما السابقة فى القدر فهى : أما خير ، وأما شر ، وأمرها مغطى على الناس، وقد تدل ، على هذه السابقة ، اللاحقة ، وهى ما يكون عليه الانسان فى حياته اليومية من صلاح أو طلاح ، وأمر اللاحقة غير مغطى على أصحاب البصائر ، الذين يعرفون عيوب العمل بالشريعة ، وارسال الله الرسل ، لكشف اللاحقة ، بتفصيل الشريعة ، وتغطيته تعالى السابقة فى سر لوحه المحفوظ ، ألزم عباده الحجة ، وأوجب عليهم العمل بأوامر الشريعة ، ونواهيها ، « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولقد قال ، جل من قائل ، فى ذلك « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، مالهم بذلك من علم ، ان هم الا يخرصون » .. مالهم بمشيئة الرحمن من علم ، لأنها مغطية عنهم ، وانما لهم علم بشريعة الرحمن ، وقد أمرتهم ألا يعبدوا الا اياه ، وقوله « ان هم الا يخرصون » تعنى ألا يكذبون ، وذلك لأنهم لا يردون الأمور كلها لله، فى أمور معاشهم ، وفى كسب أرزاقهم ، وما ردوها اليه فى أمر عبادتهم الا لقلة يقينهم بالآخرة ، اذا ما قيست الى الدنيا .

وحين تطلع النفس على سر القدر ، وتستيقن أن الله خير محض ، تسكن اليه ، وترضى به ، وتستسلم وتنقاد ، فتتحرر عندئذ من الخوف ، وتحقق السلام مع نفسها ، ومع الأحياء والأشياء ، وتنقى خاطرها من الشر ، وتعصم لسانها من الهجر ، وتقبض يدها عن الفتك ، ثم هى لا تلبث أن تحرز وحدة ذاتها ، فتصير خيرا محضا ، تنشر حلاوة الشمائل فى غير تكلف ، كما يتضوع الشذا من الزهرة المعطار .

ههنا يسجد القلب ، والى الأبد ، بوصيد أول منازل العبودية . فيومئذ لا يكون العبد مسيرا ، وانما هو مخير . ذلك بأن التسيير قد بلغ به منازل التشريف ، فأسلمه الى حرية الاختيار ، فهو قد أطاع الله

حتى أطاعه الله ، معاوضة لفعله .. فيكون حيا حياة الله ، وعالما علم الله ، ومريدا أرادة الله ، وقادرا قدرة الله ، ويكون الله .

وليس لله تعالى صورة فيكونها ، ولا نهاية فيبلغها ، وانما يصبح حظه من ذلك آن يكون مستمر التكوين ، وذلك بتجديد حياة شعوره وحياة فكره ، فى كل لحظة ، تخلقا بقوله تعالى عن نفسه ، « كل يوم هو فى شأن » والى ذلك تهدف العبادة ، وقد أوجزها المعصوم فى وصيته حين قال « تخلقوا بأخلاق الله ، ان ربى على سراط مستقيم » وقد قال تعالى « كونوا ربانيين بماكنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون » .

وفى حق هؤلاء قال تعالى « لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين » فقوله تعالى « لهم ما يشاءون » يعنى هم مخيرون وقونه (عند ربهم) يعنى مقام العبودية ، لأنه لا يكون عند الرب الا العبد ، وقوله « ذلك جزاء المحسنين » يعنى بالمحسنين من أحسنوا التصرف فى الحرية الفردية المطلقة ، وذلك باستعمالها فى تحقيق العبودية لله ، فانه تعالى قد قال « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

ههنا منطقة فرديات، الشرائع فيها شرائع فردية، والداعيةفيهاالى الله ، الله نفسه .. يقوم فيها العبد فى مواجهة الرب ، وقد سقطت من بينهما الوسائط ، ورفعت الحجب ـ حجب الظلمات وحجب الأنوار ـ العبادة فيها عبودية ، والعمل فيها ملاحظة السابقة ، وضبط اللاحقة عليها ، حتى يستقيم الوزن بالقسط ، اذ محاولة العبد هنا آن يكون لربه كما هو له ، وهذا معنى أمر الرب سبحانه حين قال « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » فاذا كان حضور العبد مع الرب كحضور الرب مع العبد ، تماما ، فقد أقيمالوزن بالقسط .. وهيهات!! ولا بأس هنا من استطراد بسيط الى القيمة العملية من العبادة ، ذلك

بأن قيام العبد فى مواجهة الرب ، وقد سقطت من بينهما الوسائط ، تعنى اللقاء بين الحادث والقديم ، وقد رفعت من بينهما الحجب ، والحادث هنا العقل والقديم القلب ، وهو ما يعبر عنه أيضا بالعقل الباطن • وهذه الحجب هى جثث الرغبات المكبوتة على سطح العقل الباطن ، بفعل الخوف الموروث ، فى سحيق الآماد ، من لدن النشأة البشرية الأولى ، وهى « الرين » الذى وردت الاشارة اليه فى قوله تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » •

ولا يمكن أن يبلغ الفرد الحرية الفردية المطلقة وهو منقسم على نفسه ، وبعضه حرب على بعض • بل لا بد له من اعادة الوحدة الى بنيته ، حتى يكون فى سلام مع نفسه ، قبل أن يحاول أن يكون فى سلام مع الاخرين ، فأن فاقد الشىء لا يعطيه • وهو انما يكون فى سلام مع نفسه حين لا يكون العقل الواعى فى تضاد ، وتعارض مع العقل الباطن ، ويومئذ تتحقق سلامة القلب ، وصفاء الفكر • وبعبارة أخرى ، تتحقق حياة الفكر ، وحياة الشعور ، وتلك هى الحياة العليا • وتوحيد القوى المودعة فى البنية انما يتم بأن يفكر الانسان كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، وهذا هو مطلب القرآن الينا جميعا ، حين قال ، عز من قائل ، « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » •

وانما يفض التعارض القائم ، بين العقل الواعى والعقل الباطن عن طريق فهم التعارض القائم بين الفرد والجماعة ، وبين الفرد والكون وقد بينا فضل الاسلام فى ذلك ، وهكذا يتضح ان ضرورة فهم علاقة الفرد بالجماعة ، والفرد بالكون ، فهما دقيقا انما تجىء من الحاجة العملية الى المنهاج الذى به يتم تحقيق الحرية الفردية المطلقة ، ولا يتم بمنهاج سواه •

بقى شيء .. وهو ان هنالك خطأ يتورط فيه كثير من المفكرين ، وذلك حين يظنون أن القول بالتسيير فيه سلبية والحق غير ذلك .. ذلك لأن تغطية ما سبق به القدر ، وكشف ما جاءت به الشريعة ، قد أوجبا على الانسان العمل باوامر الشريعة ، ونواهيها ، جهد الاتقان ، والاحسان ، ثم الرضا بعد ذلك بما عسى أن يكون مكتوبا عند الله ومقدرا ، وذلك توكلا عليه ، وثقة به ـ ولقد قال المعصوم « ان الله كتب الاحسان على كل شيء ، فاذا قتلتم فاحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة ، وليحدد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته . » بل أنى لا أعلم ايجابية تبلغ ايجابية من يعمل الواجب المباشر جهد الاتقان «لأن الله قد كتب الاحسان على كل شيء » ثم يرضى بالنتيجة مهما كانت من غير أن تذهب نفسه حسرات عند الخيبة ، أو يستخفه الفرح عند النجاح ، والله تبارك وتعالى يربينا ، فى ذلك ويؤدبنا ، بقوله جل من قائل « ما أصاب من مصيبة ، فى الأرض ، ولا فى أنفسكم ، الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور . »

الخلاصة

وخلاصة الأمر فى علاقة الفرد بالكون هى أن موضعه منه ليس موضع اللدد والخصومة ، ولا موضع المناجزة والمصاولة التى لا تهدأ حتى تبدأ من جديد ، فى صعيد جديد .

ان الانسان هو ثمرة الكون ، وصفوته ، وهو فيه ملك فى مملكته ، مكانه منها مكان السياسة الحكيمة ، والادارة القديرة والعدل الموزون . وقد تأذن رب الكون أن يجعل الانسان خليفته عليه ، فهو

يعده لهذه الخلافة بالتربية والتعليم والارشاد الحكيم . وقد خيل الجهل للانسان انه مقصود بالعداوة ، فى غير رحمة ولاهوادة ، فأصبح يحارب فى غير محترب ، ويعادى فى غير موجب للعداوة ، وهو لن يبلغ مبلغ الخلافة الا اذا شب عن العداوات ، وعلم أنه أكبر من أن يعادى ، ولم يصبح فى قلبه مكان الا للمحبة .. فأن الله يحب جميع الخلائق .. غازها ، وسائلها ، وحجرها ، ومدرها ، ونباتها ، وحيوانها ، وانسانها ، وملكها ، وابليسها .. فانه تبارك وتعالى انما خلق الخلائق بالارادة .. والارادة « ريدة » وهى المحبة .. ولن يكون الانسان خليفة الله على خليقته الا اذا اتسع قلبه للحب المطلق لكل صورها وألوانها ، وكان تصرفه فيها تصرف الحكيم ، الذى يصلح ولا يفسد . ولا يعوق الحب فى القلوب مثل الخوف . فالخوف هو الأب الشرعى لكل الآفات التى ايف بها السلوك البشرى فى جميع عصور التاريخ .. ولا يصلح الانسان للخلافة على الأرض ، ولا للتصرف السليم فى مملكته وهو خائف .. وليس هناك أسلوب ، ولانهج للتربية يحرره من الخوف غير الاسلام .. فان بالاسلام يتم سلام الانسان مع نفسه ، ومع ربه ، ومع جميع الأحياء ، والأشياء .. قال تعالى (يأيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين) السلم يعنى الاسلام ، ويعنى السلام .. وهما بمعنى واحد (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فيغرى بينكم العداوة ، والبغضاء .. والاشارة الى العداوة وردت فى قوله تعالى (انه لكم عدو مبين) ..

الباب الرابع

الأســـــلام

لقد تحدثنا عن الفرد والجماعة فى التفكير الفلسفى ، وعن الفرد والكون فى التفكير الفلسفى أيضا ، وأعقبنا ذلك بالحديث عن الفــرد والجماعة فى الاسلام ، والفرد والكون فى الاسلام ، نتتجع فى الاسلام من الحلول ما أعيانا ابتغاؤه فى الفلسفة ، وقد أظفرنا الله من ذلك بمــا نريد ، فوجب أن نعرف الأرض التى نقف عليها !!

فما هو الاسلام ؟

أسلم : أنقاد واستسلم • والاســـلام ، فى الحقيقة ، الانقياد والاستسلام • ونعنى بالحقيقة ما فطــرت عليه الأشياء • والله تبارك وتعالى يعنى هذا حين قال : « أفغير دين الله يبغون ، وله اسلم مــن فى السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون ؟ » والدين يعنى هنا الشأن ، والسيرة ، والسنة • ودين الله يعنى سنة الله فى خــلقه ، وهى ما فطرت عليه الأشياء • ولقــد فطرت الأشياء منقادة لله ، « وله أسلم من فى السمـــوات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون » والاســـلام ، بهذا المعنى هو دين الخلائق جميعها ، فى البداية ، وفى النهاية ، وفيما بين البداية والنهاية • ولا يستثنى من ذلك الانســان • بيد أن الرحمة الالهية لم ترض للخلائق الانقياد بغير ارادة ، فمــدت ، بدقائق لطفها ، لطليعتها ، وهو الانسان ، ان يتوهم انه يختلف عــن

بقية المخلوقات ، وهذا الوهم هو مصدر شقائه فى الحال ، وهو مصدر سعادته فى المآل ، وأنما دخل عليه هذا الوهم بما آدخل الله عليه من ارادة الحرية ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا » و « كان ظلوما جهولا » مدح فى قالب ذم . فأنه من أجل حمل هذه الأمانة جاءت الكرامة لبنى الانسان ، والله تبارك وتعالى يقول « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . » ..

وعن توهم الانسان الشذوذ عن بقية الخلائق يحدثنا ، تبارك وتعالى ، فيقول « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فماله من مكرم ، ان الله يفعل ما يشاء ؟ » ولكلمة (يسجد) معان كثيرة ، منها مطاوعة القهر الارادى . وهذه المطاوعة جارية من الانسان ، كما هى جارية من العناصر الصماء . ومنها سجود العبادة ، وهو ما عناه حين قال « وكثير من الناس » . فأن هؤلاء سجدوا سجود الأجساد فى محاريب العبادة ، الأمر الذى لم يقع من بعض الناس ، والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى « وكثير حق عليه العذاب » . فاستحقاق العذاب ليس لأنهم لم يسجدوا سجود القهر الارادى ، فأنهم قد سجدوا هذا ، ولكنه لم يقبل منهم ، وانما أريد منهم سجود العبادة ، فلم يفعلوه ، فحق عليهم العذاب . ومنها سجود العبودية ، وهو ما لم يحصل من أحد ، على تمامه ، ولن يحصل . ذلك بأن العبودية ، كالربوبية ، لاتتناهى ، ولكن طلائع البشرية ، من أنبياء الحقيقة ، حققوا منه حظوظا

متفاوتة . وكون سجود العبودية لم يتم لأحد ، ولن يتم ، انما يلتمس تقريره فى صدر الآية التالية ، حيث يقول تعالى « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » فأنها تصح فى حق كل عابد ، وهى اشارة الى انقسام الشخصية البشرية ، الى ظاهر ، وباطن ، وهى لن تنفك منقسمة ، لأن الثنائية حظها ، ولا تتم العبودية الا لوتر ، وهيهات !! فسجود العبادة وسيلة الى سجود العبودية ، اذ به يرفع عن الانسان الوهم ، فيخرج من سجنه الى سراحه ، ومن جهله الى علمه ، ومن شقائه الى سعادته ، وذلك حين يسجد سجود المطاوعة للقهر الارادى ، ولكن عن وعى ، وفهم ، وادراك به يختلف عن العناصر الصماء ، والى هذا السجود الرفيع الاشارة اللطيفة فى قوله تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا ؟ » والاشارة اللطيفة هنا هى عبارة « وهو محسن » فأنها سر هذه الآية ، وهى أيضا سر الآية الأخرى التى تقول « ومن يسلم وجهه الى الله ، وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الأمور » وانما كانت عبارة « وهو محسن » سر الآيتين لأن جميع العناصر الصماء مسلمة وجهها لله ولكنها غير محسنة ـ غير واعية ولامدركة ـ فلا عبرة بأسلامها ، لأنها مسلمة فى منطقة الارادة ، ولم تبلغ أن تكون مسلمة فى منطقة الرضا ، فذلك حظ البشر وحدهم ، وهو ما من أجله أرسل الله الرسل ، وقد سبقت الى ذلك الاشارة .

والاسلام بهذا المعنى دين البشرية ، وغرضه مجاراة الوهم البشرى ، الذى أوحت به ارادة الحرية ، حتى يتم الخروج عنه ، على مكث ، وبحكمة متثبتة ، تكون ثمرتها الاسلام الواعى . والاسلام الذى هو دين البشرية ظهر بظهور العقل ، وظل يواكب نمو العقل فى تطوره الطويل ، من بداية ساذجة ضعيفة الى نهاية حكيمة مستحصدة .

والاسلام الذى هو دين البشرية ، هو نفسه الاسلام الذى هو دين الله ، فى الآية التى سلف ذكرها ، وهى قوله تعالى ، « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون » وعن الاسلام الذى هو دين البشرية وردت الآية « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » وقوله « وهو فى الآخرة من الخاسرين » يعنى أن محاولاته كلها تفشل ، فيرد فى أخرياتها الى الاستسلام بعد أن تعييه الحيلة . وفى نفس المعنى وردت الآية « ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم ، بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » قوله « عند » ليس للزمان ، ولا للمكان ، لأن الله لا يحويه الزمان ولا المكان ، وانما هى لتناهى الكمال . فالاسلام الذى هو دين البشرية ، فى قمته ، يسير مصاقبا للأسلام الذى هو دين العناصر ، ويطالب بأنقياد كأنقيادها ، مع الوعى وتمام الادراك لهذا الانقياد ، وهيهات !!

قوله « وما أختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم » يعنى ما اختلفوا الا فى الشرائع ، هذا معنى من جملة معان ، وهو يستقيم مع كون الدين فى أصله واحدا ، والشرائع متباينة . قال تعالى « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » كانوا أمة واحدة على الجهل البدائى ، « وانزل معهم الكتاب » تعنى « لا اله الا الله » ، والشرائع المناسبة ، لجماعتهم ، ولعبادتهم ، وعندئذ ظهر الخلاف ، فجاء قوله تعالى « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » ، وفى وحدة الدين يحدثنا القرآن فيقول « ولله ما فى السموات والأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، واياكم ، ان اتقوا الله ،

وأن تكفروا فان لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وكان الله غنيا حميدا » فقوله « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله » يعنى أمرناهم ، كما أمرناكم ، أن تقولوا « لا اله الا الله » فان هذه هى قمة التقوى ، وهى « كلمة التقوى » التى عنى بقوله تعالى « اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها ، وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليما » فكلمة التقوى هى « لا اله الا الله » ومن ههنا جاء حديث المعصوم « خير ما جئت به أنا والنبيون من قبلى « لا اله الا الله » ..

والى وحدة الدين الاشارة بقوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ان أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب » قوله « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » يعنى بين لكم من الدين ما فرض على نوح وهو أيضا ما فرض على آدم ، وهو حين بينه لكم أنما فرضه عليكم ، وهذا لا يعنى الشريعة وانما يعنى التوحيد ، الذى عليه تقوم الشريعة ، بقرينة وحدة التوحيد ، واختلاف الشرائع ، وبقرينة قوله « أن أقيموا الدين ، ولاتتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » وأنما يكبر على المشركين ، وهم المعددون ، أن يدعوا الى التوحيد . وهو ما يحصل دائما ، وانعكاس التوحيد فى التشريع هو الذى يعرض التشريع للمعارضة ، ذلك لأن النفوس لاحظ لها فى التوحيد .

الاسلام كدين بدأ ظهوره بظهور الفرد البشرى الأول ، وقد تحدثنا عن ذلك فى الفصل الذى عقدناه عن علاقة الفرد بالمجتمع وهو ،

يحاول فى قمته أن يصاقب الارادة الالهية • وقد تحدثنا عن ذلك فى الحديث عن الأمر التكوينى والامر التشريعى ، فهو اذن له بداية ، وليست له نهاية ، لأن نهايته عند الله ، « ان الدين عند الله الاسلام »•

بدأ ظهور هذه الفكرة الواحدة فى الوثنيات البدائية المتفرقة . ثم أخذت تتقلب فى مراقى التطور حتى ظهرت الوثنيات المتقدمة ، وأطرد بها التقدم حتى ظهرت صور ديانات التوحيد الكتابية ، بظهور اليهودية وظهور النصرانية ، ثم توج ذلك ببعث محمد ، وبانزال القرآن الكريم• وهذه الفكرة الواحدة ذات شكل هرمى ، قاعدته أحط الوثنيات التعدديات ، وأكثرها تعديدا ، وقمته عند الله ، حيث الوحدة المطلقة ، والاختلاف ، كما هو واضح ، بين القاعدة والقمة اختلاف مقدار ، وليس اختلاف نوع •

وهذه الفكرة الواحدة نبتت فى الأرض ، كما نبتت الحياة بين الماء والطين ، وظلت متجاذبة بين أسباب السماء وأسباب الأرض ، وكلما ألمت بها أسباب السماء رفعت قمتها الى قمة ، ثم اذا ألمت بها أسباب الأرض أخذت قمتها تتطامن نحو القاعدة ، حتى تطمئن ، فتتسع القاعدة ، وتنحط القمة • واتساع القاعدة هذا ، أنما هو استعداد لأرتفاع القمة ، الى قمة جديدة ، أعلى من سابقتها ، عند المامة أسباب السماء المستأنفة • والمامة السماء فى الأوج نسميها زمن بعثة ، والمامة الأرض فى الحضيض نسميها زمن فترة • وهكذا ظلت هذه الفكرة الكبيرة تسير فى مراقى الاكتمال كما تسير الموجة بين قمة وقاعدة ، وكل قمة أعلى من سابقتها ، وكل قاعدة أوسع من سابقتها ، الى أن التحقت الأرض بأسباب السماء ، أو كادت • فاستقر وحى السماء الى الأرض ، بين دفتى المصحف ، على الأرض ، ولكنه لا يزال ينتظر التطبيق •

الثالوث الاسلامى

بمجىء موسى ونزول التوراة على بنى اسرائيل دخلت الفكرة الاسلامية فى طور جديد ، وهو طور ما يسمى بالاديان الكتابية ، وهى اليهودية والنصرانية ، والاسلام ـ فالتوراة لليهود ، والانجيل للنصارى ، والقرآن للمسلمين . وهذا الطور الجديد ، الذى دخلته الفكرة الاسلامية بمبعث موسى ، تميز بالتوسع فى التشريع الدينى بصورة لم يسبق لها مثيل ، وجميع التشاريع تنسب للرب عن طريق الوحى الملائكى لموسى ، وقد اتجه التشريع الدينى ، الموحى به من الرب الواحد ، الى تنظيم حياة المجتمع ، فى كل كبيرة وصغيرة ، وبصورة جماعية واسعة . ولقد تعانقت عقيدة التوحيد مع شريعة التنظيم على هذا المدى الواسع لأول مرة فى التاريخ . ثم جاء عيسى بالانجيل ، ثم اكتمل الثالوث الاسلامى بمبعث خاتم النبيين ، والقرآن يحدثنا عن ذلك فيقول « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين اسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والاحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، وأخشونى ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون * وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا اليك الكتاب بالحق ، مصدقا ، لما بين يديه من

الكتاب ومهيمنا عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

ولقد بعث موسى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وكان المجتمع بدائيا غليظا ، وكان الفرد شكسا ، سىء الخلق ، وكان قريب عهد بقانون الغابة ، فدعته التوراة الى الانصاف ـ الى المعاملة بالمثل ـ النفس بالنفس ، والعين بالعين ـ لتكون شريعته ، وتلطفت فرغبته ، من بعيد ، فى العفو . فقالت ، فيما حكاه عنها القرآن ، « فمن تصدق به فهو كفارة له » . من تصدق بالقصاص على المعتدى ، فلم يقتص منه ، فأن الله يعوضه من فضله عما أصابه . فذلك قول القرآن ، حين قال : « فيها هدى ونور » فأن الهدى الشريعة ، والنور الأخلاق .. والأخلاق هى الطرف الرفيع من الشريعة ، وهى تخرج عن الزام الشريعة الى تطوع كل فرد على حدة .

وانما طالبت التوراة بالقصاص ، وكادت ان تقتصر عليه ، لأنه اقرب الى طبيعة النفس البشرية البدائية ، التى مردت على الشكاسه ، والاعتداء ، فلا يرجى منها كثير فى باب العدل ، بله العفو . ولقد كان بنو اسرائيل كلما دعوا الى واضحة نكصوا عنها . وانهم لفى عنفوان دينهم ، وموسى بين ظهرانيهم ، ونصرة الله اياهم على عدوهم لا تزال ماثلة ، حين حنوا لعبادة العجل ، وهذا القرآن يقص علينا من أخبارهم « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون * ان هؤلاء متبرماهم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين ؟ » فسكتوا عن غير اقتناع ولا ايمان ، فلما ذهب موسى لميقات

ربه ، وخلف على قومه هارون أخاه ، اتخـذوا العجل ، وقالوا هـذا الهكم ، واله موسى ، فقال تعالى عنهم فى ذلك « أفلا يرون ألا يرجـع اليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؟ * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قومى انما فتنتم به ، ان ربكم الرحمن ، فاتبعونى ، واطيعـوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى » ..

والمشاهد كثيرة فى القرآن التى تتحدث عن غلظة اليهود ، وعن كثافتهم ، وكيف انهم كلما دعوا الى رفعة اخلدوا الى الأرض ، وهـذا أمر طبيعى فى ذلك الطور المتقدم من اطوار النشـأة ، وهم ، على ما كانوا عليه ، قد كانوا صفوة زمانهم .. « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » وانماهم آل ابراهيم ، وهـم أيضا آل عمران .. « ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم » .

ومهما يكن من الأمر ، فقد جاءت تشـاريع التوراة فى طرف البداية ، ولم يتخلص اليهـود ، لدى التطبيق ، مـن الوثنيات التى عاصروها فى مصر زمنا طويلا ، مما زادها ايغالا فى البدائية .

ثم جاء المسيح بتشريع يشد الناس الى طرف النهاية حتى لكأنه رد فعل ، وهو من غير شك كذلك . وهذا أمر يدركه كل عابد مجود ، فأنك فى بداية عبادتك تكون نفسك صماء ، لأن روحك تكون منكدرة بظلماتها ، فاذا ما اخذت باساليب العبادة النبوية الأحمدية ، فصمت صياما صمديا لثلاثة أيام وليلتين ، أو لسبعة أيام وسـت ليال ، مع موالاة الصلاة ، وبخاصة صلاة الثلث الاخـير من الليل ، فانك تبدأ تشعر بان نفسك أخذت تشد الى الطرف الآخر ، فاذا ثابرت على موالاة هذا النهج الاحمدى لمدة كافية ، فأن روحك ، بعـد أن كانت مطوية تحت جناح نفس كثيفة مظلمة ، تنطلق ، فى لطف وخفة ، الى شـاطىء الوادى الايمن ، وتظل انت ، كبندول السـاعة ، تتأرجح بين أقصى

الشمال ، وأقصى اليمين . ويكون مثلك الأعلى أن تثبت فى الوسط ، وهيهات ! هيهات ! فأن ذلك مقام « مازاغ البصر وما طغى » .

هذا الأمر الذى يجرى للفرد العابد المجود ، من بروز ثالوثه ، هو ما حصل للانسانية المجاهدة ، فى هذا الامـد الطويل ، ببروز ثالوثها ، من الأديان الثلاثة .. اليهودية والنصرانية والاسلام .. ذلك بان تاريخ الفرد البشرى يحكى تاريخ المجتمع البشرى برمته .. وهذا هو السر فى ان المسيح جاء بروحانية مفرطة ، فى مقابل مادية مفرطة (الأولى من الافراط والثانية من التفريط) ــ وجد عليها اليهود . ولقد قال المسيح لتلاميذه « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس ، أو الأنبياء .. ماجئت لأنقض بل لأكمل » وهذا ما أشـــار اليه القرآن بقوله مـن الآيات السوالف «وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه مـن التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين » فهو مصدق لما بين يديه من التوراة، وأنجيله مصدق لما بين يديه من التوراة ، فهو لا ينقض ، وانما يكمل ، كما قال ، ومعنى يكمل انه يطور ، ويمدد المعانى ، التى قصر بها حكم الزمن ، عن بلوغ غاياتها ، الى غاياتها أو تكاد .

اسمعه وهو يعلم تلاميذه فيقول : «سمعتم انه قيل عين بعين، وسن بسن ، ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا » ولقد بعث المسيح فى وقت كانت السلطة الزمنية فيه ، على اليهود ، للرومان ، وكانت الشريعة اليهودية معطلة ، فى بعض جوانبها ، من جراء ذلك ، فجاءت دعوة المسيح وكأنها ؛ مـن الناحية العملية ، لا تعنى بتنظيم حياة المجتمع ، وانما تقدم وصـــايا خلقية ، ومد فى هذا المظهر كون السيد المسيح لم يعسر طويلا ، فأنه لم يلبث فى الدعوة الاثلاث سنوات .

والحق أن تشريع اليهود هو تشريع النصارى ، الا حيث تناوله المسيح بالتطوير ، ففى هذه الحالة يصبح تشريع النصارى قد جدد من تشريع اليهود ، بالنص الوارد عن المسيح • وهذا الأمر غير مدرك ، وغير معمول به عند النصارى •

« وآتيناه الأنجيل فيه هدى ونور » وهدى هنا أيضا تعنى شريعة ، ونور تعنى أخلاق • والأنجيل أدخل فى الأخلاق من التوراة ، ولذلك فأنه قد جعل العفو شريعته ، وبها جاء أمر رسوله ، وحين قال المسيح : « سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن » فأنه قد جاء بطرف البداية ، وهو طرف التفريط فى الروح ، وحين قال « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا » قد جاء بطرف يشبه النهاية ، وهو طرف الأفراط فى الروح •

ثم جاء الاسلام ، على عهد محمد ، بين طرفى الافراط والتفريط ، فكأنه من « ثالوث الاسلام » مقام « مازاغ البصر، وماطغى » من ثالوث القوى المودعة فى البنية البشرية ، قال تعالى فى هذا « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » •• « أمة وسطا » بين الأفراط والتفريط ، و « لتكونوا شهداء على الناس » يعنى لتكون فيكم كل الخصائص التى يلتقى عندها الناس ، وقوله « أهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم، غيرالمغضوب عليهم، ولاالضالين» فالصراط المستقيم هوالوسط بين الطرفين اللذين يكون فى احدهما غضب الله ، وهو طرف التفريط ، وفى ثانيهما الضلال ، وهو طرف الأفراط فى الروحانية • ومعنى « الذين أنعمت عليهم » المسلمون ، والى ذلك الاشارة بقوله « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » ولما كان الاسلام الذى جاء به محمد وسطا بين اليهودية

والنصرانية ، فان القرآن قد جاء فى سياقه بالجمع بين خصائص اليهودية ، وخصائص النصرانية، وذلك حين يقول، مثلا : «وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا ، وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » فقوله « جزاء سيئة سيئة مثلها » يقابل قول التوراة الذى حكاه المسيح حين قال « عين بعين وسن بسن » وهو لا يحكيه تماما ، وانما فيه تطوير ، ينفر من القصاص ، ليمهد للعفو ، وذلك بما يسمى عمل المقتص ممن اعتدى عليه «سيئة» . وقوله «فمن عفاء، وأصلح،فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » يقابل قول الانجيل الذى حكاه المسيح حين قال « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا » وهو لا يقابله تماما . فان قول القرآن أبلغ من عبارة الأنجيل هذه ، فى التسامح ، وللمسيح قولة أخرى تقابل « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » ، وذلك حيث يقول « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم » ..

وكون الاسلام وسطا بين طرفين ، طرف البداية وطرف النهاية ، وجامعا لخصائص الطرفين ، جعل الاسلام نفسه ذا طرفين : طرف أقرب الى البداية ، وطرف أقرب الى النهاية .. وهذا شأن كل وسط بين طرفين ، فهو كالولد الذى يجىء جامعا لخصائص الوالد ، وخصائص الوالدة ، على نسب قد تتفاوت ، ولكنها لا تنعدم .

فاذا كان هذا الحديث صحيحا ، وهو صحيح ، بلا أدنى ريب ، فان له أثرا بعيدا فى مستقبل الفكر الاسلامى ، ذلك بأنه يعنى ان الاسلام ، كما جاء به القرآن ، ليس رسالة واحدة ، وانما هو رسالتان : رسالة فى طرف البداية ، أو هى مما يلى اليهودية ، ورسالة فى طرف النهاية ، أو هى مما يلى المسيحية ، وقد بلغ المعصوم كلتا الرسالتين ،

بما بلغ القرآن ، وبما سار السيرة ، ولكنه فصل الرسالة الأولى بتشريعه تفصيلا ، وأجمل الرسالة الثانية اجمالا ، اللهم الا ما يكون من أمر التشريع المتداخل بين الرسالة الأولى ، والرسالة الثانية ، فإن ذلك يعتبر تفصيلا فى حق الرسالة الثانية أيضا ، ومن ذلك ، بشكل خاص ، تشريع العبادات ، ما خلا الزكاة ذات المقادير .

الباب الخامس

الرسالة الأولى

الرسالة الأولى هى التى وقع فى حقها التبيين بالتشريع وهى رسالة المؤمنين .. والمؤمنون غير المسلمين ، وليس الاختلاف بين المؤمن والمسلم اختلاف نوع ، وانما هو اختلاف مقدار ، فما كل مؤمن مسلم ، ولكن كل مسلم مؤمن .

والاسلام بداية ، ونهاية . فكما أن الزمان والمكان لولبيان ، فكذلك الأفكار ، فانها لولبية ، يسير الصاعد فى مراقيها فى طريق لولبى ، يرتفع فى المراقى كلما يدور على نفسه ، حتى اذا تمت دورة على نقطة البداية ارتفع السالك سمتا فوقها ، وجاءت نهاية تلك الدورة على صورة تشبه البداية ، ولا تشبهها . فكذلك الشأن ، فأن السالك فى مراقى الاسلام يسير على معراج لولبى ، ينضم نحو مركزه ، كلما ارتفع نحو قمته ، ويدور على نفسه دورة ، كلما رقى فى سبع درجات ، أولها الاسلام ، ثم الايمان ، ثم الاحسان ، ثم علم اليقين ، ثم عين اليقين ، ثم حق اليقين ، ثم ، فى نهاية الدورة ، الاسلام .

وأمة البعث الأول ـ أمة الرسالة الأولى ـ اسمها المؤمنون ، لدى الدقة ، وانما اخذت اسم المسلمين ، الذى ينطلق عليها عادة ، من الاسلام الأول ، وليس ، على التحقيق ، من الاسلام الاخير .

وانت حين تقرأ قوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » يجب ان تفهم ان المقصود الاسلام الأخير ، وليس ، على التحقيق ، الأسلام

الأول ، ذلك بأن الاسلام الأول ليست به عبرة ، وانما كان الاسلام الذى عصم الرقاب من السيف ، وقد حسب فى حظيرته رجال أكل النفاق قلوبهم ، وانطوت ضلوعهم على بغض النبى وأصحابه ـ ثم لم تفر ضلوعهم عن خبئها ، وذلك لأن المعصوم قد قال « أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لااله الاالله، وان محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا ، عصموا منى دماءهم ، وأموالهم ، الا بحقها ، وأمرهم الى الله » ولقد نشأ الاسلام بين القريتين : مكة والمدينة : بدأ فى مكة ، فلما انهزم فيها هاجر الى المدينة ، حيث انتصر . وما كان له ان ينتصر فى مكة ، ولم ينتصر . « وتلك الامثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون » .

ما انتصر الاسلام ، وانما انتصر الايمان . ولقد جاء القرآن مقسما بين الايمان ، والاسلام ، فى معنى ما جاء انزاله مقسما بين مدنى ، ومكى . ولكل من المدنى والمكى مميزات يرجع السبب فيها الى كون المدنى مرحلة ايمان ، والمكى مرحلة اسلام .

فكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ « يأيها الذين آمنوا » فهو مدنى ، ماعدا ما كان من أمر سورة الحج ، وكل ما ورد فيه ذكر المنافقين فهو مدنى ، وكل ما جاء فيه ذكر الجهاد ، وبيان الجهاد ، فهو مدنى ، هذا الى جملة ضوابط أخرى .

واما المكى فمن ضوابطه ان كل سورة ذكرت فيها سجدة فهى مكية ، وكل سورة فى أولها حروف التهجى فهى مكية ، سوى سورتى البقرة ، وآل عمران ، فأنهما مدنيتان ، وكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ « يأيها الناس » أو « يابنى آدم » فانه مكى ، سوى سورة النساء ، وسورة البقرة ، فأنهما مدنيتان وقد استهلت أولاهما بقوله تعالى

« يأيها الناس اتقوا ربكم » وفى أخراهما « يأيها الناس أعبدوا ربكم » والشواذ عن الضوابط ، بين المكى والمدنى ، انما سببها التداخل بين الايمان والاسلام ، فانه ، كما ذكرنا ، كل مؤمن مسلم فى مرتبة البداية ، وليس مسلما فى مرتبة النهاية ، وكل مسلم مؤمن ، ولن ينفك .

والاختلاف بين المكى والمدنى ليس اختلاف مكان النزول ، ولا اختلاف زمن النزول ، وانما هو اختلاف مستوى المخاطبين . فيأيها الذين آمنوا خاصة بأمة معينة . ويأيها الناس فيها شمول لكل الناس . فاذا أعتبرت قوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » ـ وقوله تعالى « ان الله بالناس لرؤوف رحيم » وأدركت فرقا ، فأعلم انه الفرق بين المؤمن والمسلم ، وهو مستوى كل من الخطابين . وورد خطاب المنافقين فى المدينة ، ولم يرد فى مكة ، مع ان زمن النزول فى مكة ثلاث عشرة سنة ، وفى المدينة عشر سنوات ، أو يقل ، وذلك لأنه لم يكن بمكة منافقون . وانما كان الناس أما مؤمنين ، أو مشركين ، وما ذلك الا لأن العنف لم يكن من أساليب الدعوة بل كانت آيات الاسماح هى صاحبة الوقت يومئذ ، «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » واخواتها ، وهن كثر .

وحين تمت الهجرة الى المدينة ، ونسخت آيات الاسماح ، وانتقل حكم الوقت الى آية السيف ، ونظائرها ، « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا ، واقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم . » ودخل الخوف فى ميدان الدعوة ،

واضطرت نفوس الى التقية ، اسرت أمرا واعلنت غيره ، ودخل بذلك النفاق بين النـــاس .

وكون ذكر الجهاد ، وبيان الجهاد ، من ضوابط الآيات المدنية ، لايحتاج الى تعليل .

وأما كون المكية من ضوابطها ذكر السجدة ، فذلك لأن السجدة اقرب الى الاسلام منها الى الايمان . وفى حديث المعصوم : « اقرب ما يكون العبد لربه وهو ســـاجد » وفى القرآن الكريم « واسجـد ، واقترب » وفيه سر عظيم من اسرار السلوك الى منازل العبودية .

ومنها ان تفتتح السور بحروف التهجى ، وهذا باب عظيم ، وفيه سر القرآن كله ، والحديث عنه لا يتسع له هذا المقام ، وانما نكتفى منه بما نحن بصدده من بيان الفرق بين رسالتى الاسلام . وعدد الحروف التى جرى بها الافتتاح أربعة عشر حرفا ، وهى بذلك نصف الحـروف الأبجدية . وقد افتتحت بها تسـع وعشرون سورة ، على أربع عشرة تشكيلة ، هى :ـــ

ألم ، المص ، الر ، المـر ، كهيعص ، طه ، طســـم ، طس ، يس ، ص ، حم ، حم ـ عسق ، ق ، ن . وكل هـذه التشكيلات ورد بعدها ما يفيد انها القرآن ، وأوضح شىء فى ذلك قوله تعـــالى من سورة البقرة : « ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هـدى للمتقين » ذلك اذا وقفت على « فيه » ، أو شئت وقفت على « لا ريب » فجاءت الآيتان هكذا : « ألم * ذلك الكتاب لا ريب ، فيه هـدى للمتقين » وفى كلتيهما فأن الاشارة بذلك الى « ألم » .

ومعنى الحرف أنه من كل شىء طرفه ، وشفيره ، وحده ، ومنـه « حرف الجبل » وهو أعلاه المحدد الرفيع .

ولقد مرت على حروف التهجى حقب سحيقة وهى تتقلب فى صور بدائية جدا ، قبل أن تأخذ شكولها الحاضرة ، ذلك بأن الحاجة الى الكتابة انما نشأت مع الحاجة الى اللغة فى وقت واحد ، وتلك حاجة سبقت الحاجة الى العرف الذى سلفت اشارتنا اليه ، حين قلنا أن المجتمع الأول نشأ حول عرف قيد نزوات الفرد ، واوجب رعاية حدود معينة ، واجبة الرعاية • فالحاجة الى وسيلة التفاهم ، ونقل الأفكار ، حاجة أملتها ضرورة المعيشة فى مجتمع • ولقد شعر بضرورة الاجتماع جميع أصناف الحيوان ، ولكن الانسان هو وحده الذى ظفر منه بحاجته ، وذلك لمقدرته على التفاهم عن طريق « تقليد » أصوات الأشياء ، والأحياء ، ومحاكاة الحركات ، وقد ساعده على ذلك أستواء قامته ، ولباقة حركات يديه ورأسه ، وارتقاء أوتار صوته• فالى ملكة « التقليد » التى انفرد بتجويدها الانسان عن سائر الحيوان، يرجع الفضل فى نشأة اللغة ، ونشأة الكتابة ، وفى اطراد ارتقائهما ، من بدايات بسيطة ، ساذجة ، الى ادوات شارفت الاتقان فى عصرنا الحاضر • بل انه الى هذه الملكة التى وهبها الله الانسان، يرجع الفضل فى التعليم والاتقان • فانه ، من أجل تجويد التقليد ، لابد من استيعاب الأشياء المراد تقليدها استيعابا عقليا كاملا ، ثم لابد من التناسق بين أدوات التقليد وبين العقل ، سواء كانت أدوات التقليد اليدين ، أو الرأس ، أو الوجه ، أو العينين • والى هذا المجهود المبذول فى تناسق حركات التقليد يرجع الفضل فى توحيد العقل والجسد • وهو توحيد لم يكتمل بعد ولا يزال يطرد •

ومع أن الحاجة الى الكتابة ظهرت فى نفس الوقت مع الحاجة الى اللغة الا أنها لم تكن فى مستوى واحد من الالحاح ، ومن الضرورة • ولقد أغنت الاشارة عنها الى ردح طويل • ولقد بدأت الكتابة برسم

الأشياء ، والحيوان المراد التعبير عنها ، أو ربما برسم حادثة برمتها يراد نقلها الى أحد لم يكن شاهدها . ولقد كان رسم صورة الحيوان من مراسيم الصيد ، وهى مراسيم تتصل بالعقيدة والعبادة ، فكأن الصياد كان يعتقد أنه يحرز الحيوان فى الصيد ، حين يحرز صورته فى كهفه الذى يقيم فيه . وذلك للصلة التى اعتقدها بين الصورة والروح .

ثم تطور الفهم فأصبح الفنان يجتزىء برسم جزء معين للحيوان للتعبير عن سائره ، كأن يرسم رأس الثور فقط بدلا من رسمه كله . ثم اطرد التطور فى تبسيط صور الأشياء والأحياء حتى جاءت الحروف الأبجدية الحاضرة ، فى سحيق الآماد ، وبعد تطور بطىء ، طويل .

وعدد حروف التهجى يختلف فى اللغات المختلفة ، وهو فى لغتنا ثمانية وعشرون حرفا ، أولها الألف وآخرها الغين ، وهى فى ذلك أكمل اللغات .

واذ دفعت الضرورة الى اللغة ، دفعت أيضا الى الحساب ، وقد نشأ الحساب نشأة ساذجة ، وبدائية أيضا ، وأعان عليه ، وبعثه فى الذهن ، أصابع اليدين والقدمين ، فانها ظاهرة تبعث على التأمل ، والتعجب ، ولقد كان العدد ، ولايزال ، يمارس على أصابع اليدين ، وهذا من الأسباب التى جعلت العشرة تتخذ أساسا للعد . ولم تظهر الأرقام التى نعرفها الآن الا بعد زمن طويل من التطور من الصور البدائية للأعداد . ولقرينة الرمز ، والاشارة ونقل العبارة ، التى تربط بين اللغة والحساب استعملت أحرف الهجاء بدلا من الأرقام منذ زمن متقادم ، كما هو معروف فى الأرقام الرومانية ، وهم قد كانوا مسبوقين الى ذلك باليونانيين . ولقد سرى هذا الاستعمال الى اللغة العربية ، فجعلت الأحرف التسعة الأولى لتنوب عن الآحاد التسعة ، والحرف العاشر وما بعده يدل على العقود ، الى الحرف الثامن عشر ، ومن

الحرف التاسع عشر والى الثامن والعشرين تدل على المئات ، فأصبح بذلك الرقم المقابل لنهاية الأبجدية الألف ، وهذا هو الذى جعلنا نقول أن اللغة العربية أكمل اللغات ، وذلك لما للرقم « ألف » من قيمة روحية « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » أو حين يقول « انا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر » وهى تعنى ألف عام . وحين يقول «من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . والقرآن كله ذو شكل هرمى .. له قاعدة ، وله قمة ، وهو يتفاوت بين القاعدة والقمة فى معان تدق كلما ارتقت نحو القمة . فهو تفاوت بين حسن وأحسن . وفى قمة القرآن الحروف الهجائية التى افتتحت بها السور ، وهذه الحروف ، فى ذاتها ، ذات شكل هرمى أيضا ، يتفاوت بين قاعدة وقمة . فالحروف على ثلاث درجات :

الحروف الرقمية ، والحروف الصوتية ، والحروف الفكرية . فالحروف الرقمية هى الثمانية والعشرون المعروفة ، ومنها يتألف الكلام الظاهر : والحروف الصوتية لا حصر لها ، وهى ، المسموع منها ، وغير المسموع بالحاسة ، تؤلف الخواطر التى تجيش فى العقل الواعى . وأما الحروف الفكرية فهى ملكوت كل شىء ، وهى كلمات الله التى قال عنها ، جل من قائل « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا » . ومن هذه الحروف الفكرية تتكون الخواطر المستكنة فى العقل الباطن ، وفى سويدائه الحقيقة الازلية ، وعلى حواشيه الدين . والى الحروف الرقمية والحروف الصوتية ، والحروف الفكرية ، الاشارة بقوله تعالى « وان تجهر بالقول ، فأنه يعلم السر ، واخفى » فالقول المجهور به يقابل الحروف الرقمية ، والسر يقابل الحروف الصوتية ، واما

الحـروف الفكرية فيقابلها « سـر السر » وهـو المعبر عنه بكلمة « وأخفى » ومن هذه الحروف الفكرية ما لا يسمع الا بالحاسـة السـابعة .

والى هذه المراتب الثلاث أيضا الاشارة بقوله تعالى « وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسـا » وهى آية فى الجهر ، وفى السر ، أى فى القول باللسان وفى الخواطر ، واما سر السر فأن فيه قوله تعالى « وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمـل ظلما » . والظلم هنا الشرك الخفى ، وهو الكبت الذى به انقسمت الشخصية البشرية الى عقل واع ، وعقل باطن ، بينهما تضاد وتعارض .

ولقد تحدثنا عن الكبت فيما سلف من هـذا الكتاب ، وقلنا انه بفعل الخوف . وقلنا ان الحرية الفـردية المطلقة تتطلب الحرية مـن الخوف ، ومن أجل الحرية من الخوف ، على اطلاقه ، وجـب تنظيم المجتمع على صورة تؤمن الفرد من الخوف على الرزق ، والخـوف من تسلط الحاكم ، والخوف من تعنت الرأى العام . ثم وجب اعطاء الفرد فكرة متكاملة عن علاقته بالبيئة ، وعن حقيقة البيئة التى عـاش فيها أسلافه ، والتى لا يزال يعيش فيها هو ، حتى يستطيع أن يتحرر من العقد النفسية التى ترسبت فى عقله الباطن ، وورثها صـاغرا عن كابر ، فى سحيق الآمـاد .

ولقد تحدثنا عن اسلوب القرآن العكسى ، فى تعليم الانسان ، والطردى ، وذلك على غرار الآية الكريمة « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ » . وقلنا ان هذا يعنى فى السلوك ان السالك يجاهد فى ترك مخالفات الأعمال ، وان سمح للنفس فى تلك المرحلة بمخالفات اللسان ، كتدريج لها ، فأن هو استقامت له المجاهدة فى هذه المرتبة ،

زحف الى ترك مخالفات اللسان ، وان ترك للنفس سعه ، فى هذه المرحلة ، فى مخالفة الخواطر فى العقل الواعى ، بأن سمح بجولان الخواطر الشريرة فيه ، وذلك أيضا تدريج للنفس • ثم ان هو استقامت له المجاهدة ، فى هذه المرتبة أيضا ، انتقل الى تحريم جيشان الخواطر فى العقل الواعى ، وهكذا الى ان يصل الى تنقية خواطر العقل الباطن ، ويومئذ تتم سلامة القلب ، فيرى فى صفوها الله العظيم ، ويبدأ من هناك الاسلوب الطردى فى التعليم • ويكون السالك ههنا فى سلام مع نفسه ، ومع ربه ، ومع الأحياء ، والأشياء • وهذا هو الاسلام فى قمة وهو الذى أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين به حين قال « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين » فالسلم هنا هو السلام ، وهو الاسلام فى قمة •

أمة المؤمنين

قلنا لقد جاء القرآن مقسما بين الايمان والاسلام ، كما جاء انزاله مقسما بين مدنى ومكى ، وكان المكى سابقا على المدنى ، وبعبارة أخرى ، بدىء بدعوة الناس الى الاسلام فلما لم يطيقوه ، وظهر ظهورا عمليا قصورهم عن شأوه ؛ نزل عنه الى ما يطيقون • والظهور العملى حجة قاطعة على الناس ، وهو المعنى بقوله تعالى ، « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم ، والصابرين ، ونبلو اخباركم • » حتى نعلم علم تجربة لكم ، والا فأن علم الله غير حادث ، و « المجاهدين » يعنى الجهاد الاكبر ، وهو مجاهدة النفس ، « والصابرين » يعنى الصابرين عن الله ، « ونبلو أخباركم » يعنى نستخرج خواطركم المكبوتة فى العقل الباطن ــ فى سر سركم •

والآيات الدالة على النزول من أوج الاسلام ، الى مرتبة الايمان كثيرة ، نذكر منها قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ،

ولا تموتن الا وانتم مسلمون » فلما قالوا أينا يستطيع ان يتقى الله حق تقاته ؟ نزل قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، واطيعوا ، وأنفقوا خيرا لانفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولما نزل قوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » شق على الناس فقالوا : يا رسول الله اينا لا يظلم نفسه ؟ فقال « انه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ؟ (يابنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم) انما هو الشرك » فسرى عنهم ، لانهم علموا انهم لم يشركوا مذ آمنوا .. والحق ان المعصوم فسر لهم الآية فى مستوى المؤمن .. وهو يعلم ان تفسيرها فى مستوى المسلم فوق طاقتهم ، ذلك بان « الظلم » فى الآية يعنى الشرك الخفى على نحو ما ورد فى آية سر السر « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما » وقد وردت الاشارة اليها .

ولقد قيل انه لما نزل قوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، اولئك لهم الأمن وهم مهتدون » قال النبى « قيل لى انت منهم » والنبى ليس من المؤمنين ، وانما هو أول المسلمين : « قل ان صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وانا أول المسلمين » .

وقلنا أن أمة الرسالة الأولى هى « المؤمنون » . والقرآن ، حين يسمى المسلمين فى عهد موسى يهودا أو « الذين هادوا » ، ويسمى المسلمين على عهد عيسى « نصارى » يسميهم، على عهد البعث المحمدى الأول ، «المؤمنين » أو «الذين آمنوا» أسمعه يقول « ان الذين آمنوا، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وأسمعه يقول « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون ، ، والنصارى ، من آمن بالله ، واليوم

الآخر ، وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » وهناك آية هى آية فى بيان ما نحن بصـــــدده ، وذلك حين يقول « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رســـوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخـر ، فقد ضل ضـــلالا بعيدا » فهو يسميهم « الذين آمنوا » ، ثم يندبهم الى الايمان .

ان كل من له بصر بالمعانى اذا قرأ قوله تعالى «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » ثم قوله تعـالى « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، واطيعوا ، وانفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » علم أن هناك معنيين : معنى أصليا ومعنى فرعيا ، وانما المراد ، فى المكان الأول ، المعنى الأصلى ، واذ أملت الضرورة تأجيله ، انتقل العمل الى المعنى الفرعى ، ريثما يتم التحول ، من الفرع الى الأصل ، بتهيؤ الظرف المناســـب لذلك . والظرف المناسب هو الزمن الذى ينضج فيه الاستعـداد البشرى ، الفردى والجماعى ، وتتسع الطاقة . والى نقص الاستعداد هذا يرجع السبب فى تأجيل أصول الدين والعمل بالفروع .. واليك بيان ذلك :ـ

الجهاد ليس أصلا فى الأسلام

الأصل فى الاسلام ان كل انســان حر ، الى أن يظهر ، عمليا ، عجزه عن التزام واجب الحرية ، ذلك بأن الحرية حق طبيعى ، يقابله واجب واجب الأداء ، وهو حسن التصرف فى الحرية ، فاذا ظهر عجز الحر عن التزام واجب الحرية صـــودرت حريته ، عندئذ ، بقانون دستورى ، والقانون الدستورى ، كما سلفت الى ذلك الاشارة ، هو القانون الذى يوفق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة

الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وقد قررنا آنفا ان ذلك هو قانون المعاوضة .

هذا الاصل هو أصل الاصـــول ، وللوفاء به بدئت الدعوة الى الاسلام بآيات الاسماح ، وذلك فى مكة ، حيث نزلت « أدع الى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحســن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » وأخواتها ، وهن كثيرات ، وقد ظل أمر الدعــوة على ذلك ثلاث عشرة سنة ، نزل أثناءها كثير من القرآن المعجز ، وتخرج أثناءها من المدرسة الجديدة ، كثير من النماذج الصالحة ، من الرجال والنســاء والصبيان . وكان المسلمون الاولون يكفون اذاهم عن المشركين ، ويحتمــلون الاذى ، ويضحون ، فى صــدق ومروءة ، فى سبيل نشر الدين ، بكل أطايب العيش ، لا يضعفـــون ولايستكينون ... يبينون بالقول البليغ ، وبالنموذج الصادق ، واجب الناس ، فى هــذه الحياة ، نحــو ربهم ، باخلاص عبادته ، ونحو بعضهم ، بصلة الرحم ، واصلاح ذات البين .

والله سبحانه وتعـــالى يقول « وما خلقت الجــن والانس الا ليعبدون » ولقد أعطانا من نعم العقل ، والجسد ، وأطايب العيش ، ما يمكننا من عبادته وعرفان فضله . ويقول « ان الله يأمر بالعـــدل ، والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشـــاء ، والمنكر ، والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ويقول « ولا تقتلوا أولادكم مــن املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولاتقربوا الفواحش ، ما ظهر منهــا وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصــاكم به ، لعلكم تعقلون » .. كل ذلك جاء به القرآن فى الدين الجــديد ، وبلغه النبى وأصحابه ، بالقول ، وبالسيرة ، وفيه لأمر الناس صــلاح

وفلاح ، فاذا أصر الناس ، بعد ذلك ، على عبادة الحجر الذى ينحتون ، وعلى قطع الرحم ، وقتل النفس ، ووأد البنت ، فقد آساءوا التصرف فى حريتهم ، وعرضوها للمصادرة ، ولم يكن هناك قانون لمصادرتها ، فلم يبق الا السيف ، وكذلك صودرت . وبعد أن كان العمل بقوله تعالى « فذكر انما انت مذكر * لست عليهم بمسيطر » انتقل الى قوله تعالى « الا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر » فكأنه قال أما من تولى وكفر فقد جعلنا لك عليه السيطرة ، فيعذبه الله بيدك العذاب الأصغر بالقتال ، ثم يعذبه العذاب الأكبر بالنار . « ان الينا ايابهم * ثم ان علينا حسابهم » واعتبرت الآيتان السابقتان منسوختين بالآيتين التاليتين ، وكذلك نسخت جميع آيات الاسماح ، وهن الأصل ، بآية السيف واخواتها ، وهن فرع أملته الملابسة الزمانية ، وقصور الطاقة البشرية ، يومئذ ، عن النهوض بواجب الحرية . ومن ههنا جاء حديث المعصوم حين قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله . فاذا فعلوا ، عصموا منى دماءهم وأموالهم ، الا بحقها ، وأمرهم الى الله » .

وقد ظن بعض علماء المسلمين ان حروب الاسلام لم تكن الا دفاعية ، وهذا خطأ قادهم اليه حرصهم على دفع فرية بعض المستشرقين الذين زعموا أن الاسلام انما استعمل السيف لينتشر . والحق ان السيف انما استعمل لمصادرة حرية أسيء استعمالها ، وقد تلبث بذلك ثلاثة عشر عاما يدعو الى واضحة من أمر الفرد ، وأمر الجماعة ، فلما لم ينهضوا بأعباء حريتهم ، ولما لم يحسنوا التصرف فيها ، نزع من أيديهم قيامهم بأمر أنفسهم ، وجعل النبى وصيا عليهم ، حتى يبلغوا سن الرشد . فاذا دخلوا فى الدين الجديد ، فحرموا من دمائهم واموالهم ما حرم ، ووصلوا من رحمهم ما أمر به أن يوصل ، رفع

عنهم السيف ، وجعلت مصادرة حرية المسىء الى القانون الجديد ، وكذلك جاء التشريع الاسلامى ، ونشأت الحكومة الجديدة .

وكل ما يقال عن تبرير استعمال الاسلام للسيف هو انه لم يستعمله كمدية الجزار ، وانما استعمله كبضع الطبيب . وكانت عنده الحكمة الكافية ، والرحمة الكافية ، والمعرفة الكافية ، التى تجعله طبيبا لأدواء القلوب . ولقد قال تعالى فى ذلك « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات . وأنزلنا معهم الكتاب ، والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز » قوله «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات» يعنى بالدلائل القواطع على صدق دعواهم ، « وأنزلنا معهم الكتاب » يعنى « لا اله الا الله » و « الميزان » يعنى الشريعة لوزن مابين العبد والرب ، وما بين العبد والعبد ، « وليقوم الناس بالقسط » يعنى ليعدلوا فى المعاملة ، وقوله « وأنزلنا الحديد ، فيه بأس شديد ، ومنافع للناس » يعنى وشرعنا القتال بالسيف فى مصادرة حرية من لايحسن التصرف فى الحرية ، حتى يرده بأس السيف الى صوابه ، فيحرز يومئذ حريته ، وينتفع بحياته .. هذا بالطبع الى ما للحديد من منافع أخرى لا تحتاج منا الى اشارة . وقوله « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » يعلم علم تجربة لكم ، لأن القتال كره للنفوس .. ليعلم من يحتمل مكروه الحرب فى سبيل الله لنصرة المستضعفين ، بأقامة القسط بين كل فرد وبين نفسه ، وبينه وبين الآخرين ، وقوله « ان الله قوى عزيز » يعنى بالقوى الذى لايحتاج لنصرة ناصر ، و « عزيز » يعنى لا ينال ما عنده الا به ، وما عنده فى هذا المقام هو النصر ، فكأنه يشير اشارة لطيفة الى قوله تعالى « ان تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم » ان تنصروا الله بنصرة انبيائه لاقامة القسط ، ينصركم الله

على انفسكم ، وهذا يعنى ، بعبارة أخرى ، أن تنصروا الله فى الجهاد الاصغر ، ينصركم فى الجهاد الأكبر ، حيث لا قوة لكم الا به ، ولاناصر لكم الاهو . « ويثبت اقدامكم » يعنى يطمئن قلوبكم . وتثبيت الاقدام الحسية غير مجحود فى مقام النصرة .

ومن الحكمة فى طب أدواء القلوب أن تبدأ الدعوة باللين ، وألا يلجأ الى الشدة الا حين لايكون منها بد ، فأن الكى آخر الدواء . وما العذاب بالقتل بالسيف فى الدنيا الا طرف من عذاب الآخرة بالنار ، وليس لعذاب الآخرة موجب الا الكفر ، وكذلك الأمر فى القتال .. فأن هو أضاف الى الكفر دعوة الى الكفر ، وصداً عن سبيل الله ، فقد أصبح قتاله وقتله أوجب ، والا فهو مقاتل بكفره لا محالة ، قال تعالى « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا الى جهنم يحشرون * ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعا ، فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون * قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وأن يعودوا فقد مضت سنة الأولين * وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فأن انتهوا فان الله بما يعملون بصير » تأمل قوله تعالى « والذين كفروا الى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب » تجد ان موجب العذاب هو الكفر « ما يفعل الله بعذابكم أن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما » . وقوله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » يعنى حتى لا يكون شرك ، ودعوة الى الشرك ، وصد عن سبيل الايمان . وقوله « ويكون الدين كله لله » هو غرض القتال الأصلى « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » ذلك أمر الله . والله بالغ أمره ولو كره الكافرون .

وقال تعالى فى موضع آخر « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فأن انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » والظالمون على مستويين : مستوى من يجعل الدين لغير الله ، ويصر على ذلك ، ومستوى من يذعن لله بالطاعة ولكنه يتعدى على حقوق الناس ، ويحيف عليهم . وفى الآية أمر بمصادرة حرية من يسىء التصرف فى الحرية ، وانما تكون المصادرة على مستوى الاساءة . فللجاحدين قانون الحرب ، وبأس الحديد . وللمعتدين على حقوق الناس قانون السلام ، وفصل الحقوق . وهذا هو معنى قوله تعالى « فأن انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

والنزول من المعنى الأصلى الى المعنى الفرعى يعنى النزول من مستوى الاسلام الى مستوى الايمان ، ومن ههنا يجب أن يفهم قوله تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » قوله « وأنزلنا اليك الذكر » يعنى القرآن كله ، مشتملا على الأصل ـ الاسلام ـ والفرع ـ الايمان . وقوله « لتبين للناس ما نزل اليهم » يعنى لتفصل بالتشريع، وألوان التبيين، للمؤمنين ما نزل الى مستواهم. قوله « ولعلهم يتفكرون » يعنى لعل الفكر ، أثناء العمل بالفروع ، يقودهم الى الأصل الذى لم يطيقوه أول امرهم . وفى ذلك اشارة بالغة اللطف الى السير فى مراقى الاسلام المختلفة ، مبتدئا بالأسلام الأول ، صاعدا بوسائل الفكر الصافى ، والقول المسدد ، والعمل المخلص . فأنه « اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » .

نخلص مما تقدم الى تقرير أمر هام جدا ، وهو أن كثيرا من صور التشريع الذى بين أيدينا الآن ليست مراد الاسلام بالأصالة . وانماهى تنزل لملابسة الوقت والطاقة البشرية .

الرق ليس اصلا فى الاسلام

فالأصل فى الاســـلام الحرية ، ولكنه نزل على مجتمع الرق فيه جزء من النظام الاجتماعى والاقتصادى • وهو مجتمع قـد ظهر عمليا أنه لا يحسن التصرف فى الحرية ، مما أدى الى نزع قيام أفراده بأمـر أنفسهم ، وجعل ذلك الى وصى عليهم ، وقد رأينا أن هـــذا ادى الى شرعية الجهاد • ومن أصول الجهاد فى سبيل الله أن يعرض المسلمون على الكفار أن يدخلوا فى الدين الجـديد ، فأن هم قبلوه ، والا فأن يعطوهم الجزية ، ويعيشوا تحت حكومتهم ، مبقين على دينهم الأصلى، آمنين على أنفسهم • فأن هم أبوا عليهم هذه الخطة أيضا ، حاربوهم ، فاذا هزموهم أتخذوا منهم سبايا ، فزاد هؤلاء فى عدد الرقيق السابق للدعـوة الجـديدة •

والحكمة فى الاســـترقاق تقوم على قانون المعاوضة • فكأن الانسان عندما دعى ليكون عبداً لله فأعرض ، دل اعراضه هذا عـلى جهل يحتاج الى فترة مرانة ، يستعد أثناءها للدخول ، عـن طواعية ، فى العبودية لله ، فجعل فى هذه الفترة عبداً للمخلوق ليتمرس على الطاعة التى هى واجب العبد • والمعاوضة هنا هى انه حين رفض أن يكون عبداً للرب ، وهو طليق ، وأمكنت الهزيمة منه ، جعـل عبدا للعبد ، جزاء وفاقا • « ومن يعمل ، مثقال ذرة ، شرا ، يره » •

وهكذا أضاف أسلوب الدعوة الى الاســـلام ، الذى اقتضته ملابسة الوقت ، والمســـتوى البشرى ، الى الرق الموروث من عهود الجاهلية الأولى ، رقا جديدا ، ولم يكن من الممكن ، ولا من الحكمة ، أن يبطل التشريع نظام الرق ، بجرة قلم ، تمشيا مع الأصل المطلوب فى الدين ، وانما تقتضى حاجة الأفراد المســـترقين ، ثم حاجة المجتمع ،

الاجتماعية ، والأقتصادية ، بالأبقاء على هذا النظام ، مع العمل المستمر على تطويره ، حتى يخرج كل مسترق ، من ربقة الرق ، الى باحة الحرية • وفترة التطوير هى فترة انتقال ، يقوى أثناءها الرقيق على القيام على رجليه ليكسب قوته من الكدح المشروع ، وسط مجتمع تمرن أيضا ، أثناء فترة الانتقال ، على تنظيم نفسه بصورة لا تعتمد على استغلال الرقيق ، ذلك الاستغلال البشع الذى يهدر كرامتهم ، ويضطهد آدميتهم ، والذى كان حظهم التعس ابان الجاهلية •

وهكذا شرع الاسلام فى الرق ، فجعل للرقيق حقوقا وواجبات، بعد أن كانت عليهم واجبات ، وليست لهم حقوق • ثم جعل الكفارات ، والقربات ، بعتق الرقاب المؤمنة ، السليمة ، النافعة • وأوجب مكاتبة العبد الصالح الذى يستطيع أن يفدى نفسه ، وأن يعيش عيشة المواطن الصالح • وهو فى أثناء ذلك يدعو الى حسن معاملتهم فيقول المعصوم « خولكم أخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تطعمون، وأكسوهم مما تلبسون » •

الرأسمالية ليست اصلا فى الاسلام

والأصل فى الاسلام شيوع المال بين عباد الله ، فيأخذ كل حاجته ، وهى زاد المسافر • وذلك أمر يلتمس تطبيقه فى حياة المسلم الوحيد فى تلك الفترة ، وهو النبى • ولكن الاسلام نزل على قوم لا قبل لهم به ، فلا يعرفون الا أن المال مالهم • وهم لم تكن عليهم حكومة تجعل على مالهم هذا وظيفة يؤدونها ، ولذلك فقد شقت على نفوسهم الزكاة التى جعلت على أموالهم ، وكانت ، لدى التحاق النبى بالرفيق الأعلى ، السبب المباشر فى الردة • وفى حقهم يقول تعالى « انما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وان تؤمنوا ، وتتقوا ، يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم

أموالكم * ان يسألكموها فيحفكم ، تبخلوا ، ويخرج أضغانكم * هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى ، وأنتم الفقراء ، وأن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » قوله « انما الحياة الدنيا لعب ، ولهو » يعنى فترة غفلة ، وجهالة ، لا تحتمل مسئولية الرجال • وقوله « وأن تؤمنوا » يعنى بالله ، ورسوله ، « وتتقوا » يعنى الكفر ، والشرك ، والكبائر ، « يؤتكم أجوركم » يعنى ثواب هذه الاعمال •• قوله « ولا يسألكم أموالكم » يعنى كلها فى الصدقة ، قوله « ان يسألكموها فيحفكم ، تبخلوا » يعنى ان يسألكم فى الصدقة كل أموالكم تبخلوا عن طاعة هذا الامر الشاق على نفوسكم ، وقوله « ويخرج أضغانكم » يعنى يظهر ما تنطوى عليه صدوركم من حب المال ، وضعف اليقين ، وكمون الشرك • قوله « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم » فيه اشارة لطيفة جدا الى المسلمين الذين يجيئون بعد المؤمنين ، ثم يكونون خيرا منهم • وهذا هو السبب الذى جعل تشريع الاسلام فى المال دون حقيقة مراده ، وذلك تخفيفا على الناس ، وتدريجا لهم ، ودرء للمشقة عن نفوس احضرت الشح • وهكذا جاءت الزكاة ذات المقادير وجعلت ركنا تعبديا فى حقهم، وذلك بمحض اللطف • يضاف الى الاعتبار الفردى اعتبار آخر ، هو أن شمس الاشتراكية لم تكن قد اشرقت على عالم يومئذ بعد

عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس اصلا فى الاسلام

والاصل فى الاسلام المساواة التامة بين الرجال والنساء ، ويلتمس ذلك فى المسئولية الفردية أمام الله ، يوم الدين ، حين تنصب موازين الاعمال • قال تعالى فى ذلك « ولا تزر وازرة وزر أخرى ،

وأن تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى ، انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ، والى الله المصير » وقال تعالى « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، ان الله سريع الحساب » وقال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » ولكن الاسلام نزل ، حين نزل ، على قوم يدفنون البنت حية خوف العار الذى تجره عليهم اذا عجزوا عن حمايتها فسبيت ، أو فرارا من مؤونتها اذا أجدبت الأرض ، وضاق الرزق : قال تعالى عنهم « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » ومن ههنا لم يكن المجتمع مستعدا ، ولاكانت المرأة مستعدة ليشرع الاسلام لحقوقها فى مستوى ما يريد بها من الخير ، وكان لابد من فترة انتقال أيضا يتطور فى أثنائها الرجال والنساء ، أفرادا ، ويتطور المجتمع أيضا • وهكذا جاء التشريع ليجعل المرأة على النصف من الرجل فى الميراث ، وعلى النصف منه فى الشهادة • وعلى المرأة الخضوع للرجل ، أبا وأخا وزوجا •• « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم » والحق ، ان فى هذا التشريع قفزة بالمرأة كبيرة ، بالمقارنة الى حظها سابقا ، ولكنه ، مع ذلك دون مراد الدين بها •

تعدد الزوجات ليس أصلا فى الاسلام

والاصل فى الاسلام ان المرأة كفاءة للرجل فى الزواج ، فالرجل كله للمرأة كلها ، بلا مهر يدفعه ، ولا طلاق يقع بينهما • ويلتمس منع التعدد فى قوله تعالى « فأن خفتم الا تعدلوا فواحدة » وفى قوله تعالى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » • ويلتمس منع

الطلاق فى قولة المعصوم « أبغض الحلال الى الله الطلاق » والاشارة اللطيفة ان مايبغضه الله لابد مانعه ، حين يصير المنع ممكنا ، وعمليا . فان الله بالغ أمره .

ويلتمس عدم ارادة الاسلام ، فى أصوله ، المهر ، فى كون المهر يمثل ثمن شراء المرأة حين كانت انما تزوج عن طريق من ثلاثة طرق .. اما ان تسبى ، أو تختطف ، أو تشترى ، فهو بذلك من مخلفات عهد هوانها على الناس ، وما ينبغى له ان يدخل معها عهد كرامتها التى أعدها لها الاسلام ، حين تدخل أصوله طور التطبيق .

ولقد نزل الاسلام ، أول ما نزل ، على مجتمع لم تكن فيه للمرأة كرامة ، على نحو ما رأينا آنفا . وانما كانت تعامل معاملة تسلكها فى عداد الرقيق .. ولم تكن العلاقة الزوجية تقوم على الانسانية واللطف مما ينبغى لها ، وانما كان الرجل يتزوج العشر زوجات ، والعشرين ، بستولدهن ، ويستغل عملهن .

وهناك ظاهرة أخرى وجدها الاسلام فى ذلك المجتمع وهى ان عدد النساء كان يفوق عدد الرجال ، لما كانت تأكل الحروب منهم . فشرع الاسلام فى تقييد الافراط فى التعدد ، ولكنه لم ير أن يقفز بالناس الى زواج الواحدة ، لأن ذلك لا يستقيم له فى ذلك المجتمع الذى مرد على الافراط فى التعدد ، ولانه رأى لان يكون للمرأة ربع رجل ، يعفها ، ويحميها ، ويغذوها ، خير من أن تكون عانسا تتعرض لعاديات الأيام وهى مندوحة الذيل . وكذلك قيد تعدد الزوجات بأربع ، فقال عز من قائل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى ، وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وفى موضع آخر ترد اشارة غاية فى اللطف تحدثنا عن صعوبة العدل بين النساء ، وذلك حين قال تعالى

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ، ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وأن تصلحوا ، وتتقوا ، فأن الله كان غفورا رحيما » نزل من مستوى العدل الذى هو مطلوب الدين ، والذى لم يكن وقته ، بالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للفرد ، من رجل ، وامرأة ، قد حان يومئذ ، الى مستوى العدل فى الشريعة ، فأعقب قوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » بقوله « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالعلقة » وبذلك أصبح معنى العدل هنا يقتصر على العدل المادى .. ولا يتناول ميل القلوب ، ولولا هذا التجاوز لما أصبح تشريع التعدد ممكنا ، وهو ، فى واقع الأمر ، تشريع ضرورى ، وبخاصة لتلك الفترة من حياة المجتمع المؤمن .

وطبيعة العدل هنا ألا يقيد الا بما تقيد به الحرية ، لأنه هنا حق ، يقابله واجب ، فمن لايعرف الواجب يسلب الحق . وكانت المرأة متخلفة كثيرا ، ولم تكن فى مستوى المساواة مع الرجل ، وقد تضافرت عدة عوامل لوضعها ذلك الوضع المتخلف ، فجاء تقييد العدل فى حقها عدلا ، فيه لها خدمة ، ولمجتمعها خدمة . ويعتبر تشريع التعدد تشريع فترة انتقال الى فجر المساواة التامة بين الرجال والنساء ، ويومها يصبح العدل فى حقها يشمل العدل فى ميل القلوب ، وهو المعنى بقوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ويجىء يومئذ القيد من قبل قوله « فأن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وهكذا يشرع فى تحريم التعدد ، الا لدى ضرورات بعينها تلجىء اليه ، وينص عليها فى القانون ، ويستأمر فيها الطرف المضرور بها .

الطلاق ليس اصلا فى الاسلام

والأصل فى الاسلام ديمومة العلاقة الزوجية بين الزوجين ، ذلك بأن زوجتك انما هى صنو نفسك . هى انبثاق نفسك عنك خارجك .

هى جماع آيات الافاق لك فى مقابلة نفسك ، على فحوى آية : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » ولكنا لا نملك النور الذى به نختار فى الزواج نصفنا الآخر ، اختيارا صحيحا .. مثلنا فى ذلك يقرب منه مثل الأعمى الذى يجلس وبين يديه « خوابير » بعضها مربع ، وبعضها مستطيل ، وبعضها مثلث ، وبعضها مبروم ، وبعضها نصف دائرة ، وبعضها قطاعات دائرة على أحجام مختلفة ، وأمامه سطح عليه « أخرام » يناسب كل منها « خابورا » من « الخوابير » التى بين يديه ، فهو يحاول أن يضع « الخابور » المناسب فى « الخرم » المناسب ، فيتفق له ذلك حينا ، ويعييه أحيانا ، بل قد يعجز عجزا تاما عن التوفيق التام بين « الخابور » و « الخرم » . وفى الحق ، أن هذا المثل لا ينطبق تمام الانطباق على حالة اختيارنا الزوجة. بل أن الأعمى ، فى هذا المثل ، أقرب الى التوفيق ، والتسديد ، من أحدنا وهو يمارس تجربة الاختيار هذه . فاذا أخطأ أحدنا فوضع « خابورا » نصف دائرى فى « خرم » مربع ، مثلا ، فانه يحتاج الى فرصة ثانية ليعيد التجربة من جديد ، وانما شرع الطلاق ليعطينا هذه الفرصة الثانية .

عندما سقط آدم بالخطيئة ، وحواء ، وأخرجا من الجنة ، هبط كل منهما ، فى مكان فى الأرض ، منعزلا عن صاحبه ، وطفقا يبحثان : آدم عن حواء ، وحواء عن آدم ، وبعد لأى ، وجد آدم حواء ، ولم يجدها . ووجدت حواء آدم ، ولم تجده . ومنذ ذلك اليوم والى يومنا هذا ، يبحث كل آدم عن حوائه ، وتبحث كل حواء عن آدمها . وأبواب الضلال واسعة، وأبواب الرشاد ضيقة، ولكنا والله الحمد، فى كل يوم نستقبل مزيدا من النور ، به تضيق دائرة الضلال ، وتنداح دائرة الرشاد . ونور الأيمان لا يكفى — وهو لم يكف المؤمنين من قبل — لتمام

التسديد فى الاختيار • فاذا أتم الله نوره ، فأشرقت شمس الاسلام ، فيومئذ لايقع خطأ فى الاختيار ، مما يحتاج الى التصحيح بتشريع الطلاق ، فالنظائر قد التقت بالنظائر والشكول ضمت الى الشكول •• « قد علم كل أناس مشربهم » •• فالزواج فى الاسلام علاقة أزلية سابقة للزواج فى الشريعة ، وما الزواج فى الشريعة الا محاولة للوصول لتلك العلاقة التى كانت بين آدم وحواء ، حين أخذت حواء من آدم « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذين تساءلون به ، والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » وما الطلاق الا فرصة الخطأ التى أتيحت للشريكين ليتعلما ، فيستغنيا عن الخطأ ، فتسقط فى حقهما شريعة الطلاق بعدم الحاجة اليها •

الحجاب ليس اصلا فى الاسلام

والأصل فى الاسلام السفور •• لأن مراد الاسلام العفة •• وهو يريدها عفة تقوم فى صدور النساء والرجال ، لا عفة مضروبة بالباب المقفول ، والثوب المسدول • ولكن ليس الى هذه العفة الغالية من سبيل الا عن طريق التربية والتقويم • وهذه تحتاج الى فترة انتقال لا تتحقق أثناءها العفة الا عن طريق الحجاب ، وكذلك شرع الحجاب • فكأن الأصل ما كان عليه آدم وحواء قبل أن يزلا : « ويا آدم أسكن انت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ، وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا

يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين ؟ * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا ، وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ، ومتاع الى حين * قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون * يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم ، وريشا ، ولباس التقوى ، ذلك خير ، ذلك من آيات الله ، لعلهم يذكرون * يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ، ليريهما سوآتهما ، انه يراكم ، هو وقبيله ، من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » قوله « ليبدى لهما » يعنى ليظهر لهما .. قوله « ما ووري عنهما » يعنى ما غطى عنهما بلباس النور .. « من سوآتهما » من عوراتهما .. قوله « فدلاهما بغرور » نصحهما بباطل ، وكذب ، حتى تورطا فى الخطيئة ، فلما سقطا « بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » فأخذا يستران عوراتهما بورق التين ، ومن يومئذ بدأ الحجاب . فهو نتيجة الخطيئة ، وسيلازمها حتى يزول بزوالها ، ان شاء الله . وفى ذلك قوله تعالى « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم » ، وهو يعنى قد خلقنا لكم ، وفرضنا عليكم لبس ثياب القطن والصوف وغيرهما مما يوارى عوراتكم .. وقوله « ولباس التقوى » يعنى لباس التوحيد ، والعفة ، والعصمة المودعة فى قلوبكم ، قوله « ذلك » يعنى لباس العفة « خير » من لباس القطن .. « ذلك » يعنى لباس القطن .. « من آيات الله » من حكمته فى تشريعه .. وكل المعنى فى قوله تعالى « لعلهم يذكرون » ويعنى لعل الناس يذكرون حالة الطهر ، والبراءة والعفة ، التى كان عليها امرهم قبل الخطيئة ، فتكون منهم الرجعى .

والآية الأخيرة واضحة الدلالة على ما ذهبنا اليه فى أمر الحجاب .. والسفور فى الاسلام اصل لأنه حرية .. وقد اسلفنا القول بأنه ، فى الاسلام ، الأصل فى كل انسان أنه حـــر ، الى ان يسىء التصرف فى الحرية ، فتصادر حريته بقانون دستورى .. وقد سلفت الاشـــارة الى القانون الدستورى .. اقرأ فى حكمة الحجاب قوله تعالى «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فأن شهدوا فأمســـــكوهن فى البيوت ، حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا . » اذا توفرت الأدلة على اعـــوجاج سلوكها بما لايرقى الى الحد تصادر حريتها بحرمانها من حقها فى حرية السفور ، وتحبس فى المنزل « حتى يتوفاهن الموت » ان لم يبد من احداهن انها قد انتفعت بالعقوبة ، وانها استقامت ، مما يجعلها مرجوة لحســـن التصرف فى السفور .

فالحجاب عقوبة حكيمة على سوء التصرف فى حرية الســـفور . هذا فى الأصل الأسلامى . ولكنه ، فى التشريع الحاضر ، يمثل مصادرة مستمرة لحرية السفور ، لأن الشـــــارع أراد به الى سد الذريعة ، حماية للقصر من مسئولية باهظة ، وثقيلة ، لا ينهض بها المؤمنون ، وانما ينهض بها المسلمون ، وما لهؤلاء شرع .

المجتمع المنعزل رجاله عن نسائه ليس اصلا فى الاسلام

وما يقال عن السفور يقال عن الاختلاط ، فان الأصل فى الاسلام المجتمع المختلط ، بين الرجال والنساء ، ثم هو مجتمع سليم من عيوب السلوك التى ايفت بها المجتمعات المختلطة الحاضرة .

هذه جميعها مجرد أمثلة سيقت على ســـــبيل اظهار الفرق بين الأصل والفرع ، وللتدليل على أن الرسالة الأولى ، انما هى تنزل عن الرسالة الثانية ، لتناسب الوقت ، ولتســـــتوعب حاجة مجتمعه ، ولتتلطف بالضعف البشرى يومئذ ، وفيها فى ذلك غناء .

الباب السادس

الرسالة الثانية

الرسالة الثانية هى الاسلام ، وقد أجملها المعصوم اجمالا ، ولم يقع فى حقها التفصيل الا فى التشاريع المتداخلة بين الرسالة الأولى وبينها ، كتشاريع العبادات ، وكتشاريع الحدود ، قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » هذا اليوم يوم عرفة ، من حجة الوداع ، فى السنة الثامنة من الهجرة ، وقد كان يوم جمعة • وهذه الآية هى آخر ما نزل من القرآن •• وهى قمة رسالات السماء •

وهو انما رضى لنا الاسلام دينا لنرضاه ، فأن أمراً لا يبدأ من طرفه هو ، لا يبدأ من طرفنا نحن •• قال تعالى « ثم تاب عليهم ليتوبوا » •

وقد ظن كثير من الناس ان قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » تعنى أن الاسلام كمل عند الناس ، وانتهى الى قمة كماله يومئذ • وهؤلاء ، حين يقرأون قوله تعالى « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » يعتقدون أن تبيين القرآن قد تم ، وليس هناك أمر هو أبعد من الصواب من هذا الرأى •• فالقرآن لم يبين منه بالتشريع ، وبالتفسير ، الا الطرف الذى يناسب الوقت الذى جرى فيه التبيين ، ويناسب طاقة الناس ••

والقرآن لا يمكن أن يتم تبيينه • والاسلام ، كذلك ، لا يمكن أن يكمل • فالسير فى مضماره سير سرمدى « ان الدين عند الله الاسلام » و « عند » ، هنا ، ليست ظرف زمان ، ولا هى ظرف مكان ، وانما هى خارج الزمان ، والمكان •• فالسير بالقرآن فى مضمار الاسلام سير الى الله فى اطلاقه •• وهو بذلك لم يتم تبيينه ، ولن يتم ، وانما تم انزاله بين دفتى المصحف •• تم انزاله ، ولم يتم تبيينه ••

ومن ههنا يفهم الفرق بين « أنزلنا » و « نزل » من الآية « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » فان الفهم العام ، عند العلماء ، انهما مترادفتان ، وما هما بذاك •• و « ما » فى جملة « ما نزل اليهم » لا تعود الى الذكر ، وانما تعود الى جزء من الذكر ، ينصب عليه الأمر بالتبيين ، وهو مايخص الرسالة الأولى •• الا ما يكون متداخلا بينها وبين الرسالة الثانية •

ويحسن أن نذكر هنا أن القرآن قد نزل مثانى •• وفى ذلك يقول تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فماله من هاد » ومعنى « متشابها » قائمة قرينة الشبه بين أسفله وأعلاه ، وبين وجهه وقفاه ، وبين ظاهره وباطنه • ومعنى « مثانى » انه ذو معنيين ، معنيين • معنى بعيد عند الرب ، ومعنى قريب تنزل للعبد •• والقرآن كله مثانى •• كل آية منه ، وكل كلمة فيه ، بل وكل حرف من كل كلمة•• والسر فى ذلك أنه حديث صادر من الرب مخاطب به العبد •• والشبه الذى فيه هو الشبه الذى قام بين الرب والعبد ، وعبر عنه المعصوم بقوله « أن الله خلق آدم على صورته » وعبر عنه تبارك وتعالى

« يأيها الناس أتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » وتلك النفس الواحدة انما هى نفسه ، تبارك وتعالى ..

فكلمة الاســـــلام ، مثلا ، لها معنى قريب هو الذى عبر عنه القرآن بقوله تعـــالى « قالت الأعـــراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » .. وهـــذا هـــو الذى أسميناه الاسلام الأول وقلنا أنه لا عبرة به عند الله . وللاسلام معنى بعيد ، وهو مركوز عند الله ، حيث لاحيث .. وهوبمعناه البعيدقدأشار اليه سبحانه وتعالى حين قال « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » . ومعلوم أنه لا يتقى الله حق تقاته الا الله ، وهو ، من ثم ، نهج معراج الى الله ذى المعارج ، فى مقـــام عزه ، بالعبودية ، والتذلل ، والاستسلام .. والعبودية لا تتناهى .. فهى كالربوبية تماما .. والعبودية المطلقة لله تقتضى العـــلم المطلق بالله . وهذا لا يكون الا لله عز وجل « قل لا يعلم من فى السمـــوات والأرض الغيب الا الله » فالغيب هنا يعنى الله .. فكأنه قال ، لا يعلم الله الا الله ، ولقد تحدثنا فى رسالة الصـــلاة كيف ان العبودية هى الحرية مما لا سبيل الى اعادته هنا .. فليرجع اليه .

والاسلام انما كان نهج معراج الى مقام العبودية بفضـــــل القرآن . وهو كتابه المسلك فى مراقيه . وهذا التسليك هو ما من أجله أنزل القرآن ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر » . وهو انما يذكرنا بالعبودية التى أقررنا على أنفسنا بها ، ثم نسيناها ، وذلك حيث قال تعالى عنا « واذ أخـــذ ربك من بنى آدم ، من ظهورهم ، ذريتهم ، وأشـــــهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا بلى ! شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا ، انما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من

[illegible]

[illegible]

من علماء المسلمين فى الخطأ ، فظنوا ان القرآن عربى بمعنى انه يمكن ان يستقصى فهمه من اللغة العربية ، ومن معرفة أساليبها، وماهو بذاك، ولقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن السور المفتتحة بأحرف التهجى ، فليراجع هناك .

ولما كان الاسلام بهذا السموق ، فانه لم يتفق لأمة من الامم الى اليوم . والأمة المسلمة لم تظهر بعد . وهى مرجوة الظهور فى مقبل أيام البشرية . وسيكون يوم ظهورها يوم الحج الأكبر ، وهو اليوم الذى يتم فيه تحقيق الخطاب الرحمانى بقوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » .

ولقد كان محمد يومئذ طليعة المسلمين المقبلين ، وهو كأنما جاء لأمته ، أمة المؤمنين ، من المستقبل ، فهو لم يكن منهم ، فقد كان المسلم الوحيد بينهم « قل ان صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا أول المسلمين » . ولقد كان ابوبكر ، وهو ثانى اثنين ، طليعة المؤمنين .. وكان بينه وبين النبى أمد بعيد . والى المسلمين ، الذين يجيئون فى مقتبل أيام البشرية ، اشار حديث المعصوم ، حين قال : « واشوقاه لأخوانى الذين لما يأتوا بعد ! » فقال ابوبكر « أولسنا اخوانك يا رسول الله ؟» قال « بل انتم اصحابى ! » ثم قال ثانية : « واشوقاه لأخوانى الذين لما يأتوا بعد ! » فقال أبوبكر : « أولسنا اخوانك يارسول الله ؟ » قال « بل انتم اصحابى ! » ثم قال ثالثة : « واشوقاه لأخوانى الذين لما يأتوا بعد ! » قالوا « من اخوانك يارسول الله ؟ » قال « قوم يجيئون فى آخر الزمان ، للعامل منهم أجر سبعين منكم » قالوا « منا أم منهم ؟ » قال « بل منكم » قالوا « لماذا ؟ » قال « لانكم تجدون على الخير أعوانا ولا يجدون على الخير أعوانا » .

المســـلمون

المسلمون كأمة لم يجيئوا بعد ، ولقد تنبأ المعصوم بمجيئهم فى آخر الزمان ، وذلك حين يبلغ الكتاب أجله ، ويجىء موعود الله تعالى فى قوله « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » ويومئذ يدخل الناس فى الدين كافة ، ولا يجدون عن ذلك منصرفا ، لأن جميع المشاكل لا تجد حلها الا فيه . وما نرى الا ان الأرض اخذت تتهيأ لظهور شريعة المسلمين التى بها تكون المدنية الجديدة ، وما بدون المدنية الجديدة للناس خلاص من افلاس النظم الاجتماعية المعاصرة .. وذلك أمر سلفت الاشارة اليه فى صدر هـذه الرسالة ، حيث قلنا ان الانسانية كلها ، فى هذه الآونة ، فى التيه ، وقد ضل سعى المدنية الغربية ، واستعلن افلاسها ، وأصبحت قضايا الديمقراطية ، والاشـــتراكية ، والحرية الفردية ، تتطلب الحلول ، وتلح فى الطلب ، ولا يجىء الحل الا من تلقيح المدنية الغربية . أو قل ، ان أردت الدقة ، الحضارة الغربية ــ بروح جـديد ، هو روح الاسلام ، وانما رشح الاسلام لهذا المقام مقدرته على حل الأشكال القائم بين الفرد والجماعة ، وبين الفرد والكون ، وهو أمر أسلفنا فى تفصيله القول .

وما ينبغى ان يلتبس اسم المسلمين المعنيين هنا ، مع الأسـم التقليدى الذى تتسمى به الأمة الحاضرة . فاننا قد أسلفنا القول بأنها لم تتسم بهذا الأسم الا من الأسلام الاول ، والا فهى الامة المؤمنة . فما من أمة من الأمم السوالف تستحق هذا الأسم . وكل ما ذكر عن الأمم من اسلام فأنما هو الاسلام الأول . الا ما كان من أمر طلائع البشرية ، فأنه الاسلام الأخير ، أو قل هو درجة فى الاسلام الأخير ،

فما للاسلام الأخير غاية فتبلغ . وهم بذلك طلائع الأمة المسلمة التى لم تجىء الى اليوم .. قال تعـالى فى ذلك .. « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت ، واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السـميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، ويزكيهم، انك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سـفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين * اذ قال له ربه اسلم ، قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها ابراهيم بنيه ، ويعقوب ، يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت ، اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ، ابراهيم، واسماعيل ، واسحاق ، الها واحدا ، ونحن له مسلمون » .. قوله « ربنا واجعلنا مسلمين لك » يعنى الاسلام الأخير ، وقد كانا مسلمين من ذلك الطراز . وأما قوله « ومن ذريتنا أمة مسـلمة لك » فأنه يعنى ، فى المـدى القريب ، أمة مسلمة على مستوى الاسلام الأول ، ثم يتداعى بهـا الترقى ، والتطور حتى تبلغ ، فى المدى البعيد ، مراقى الاسـلام الأخير . وقد استجيب لهما فى ذلك . قوله « ووصى بها ابراهيم بنيه » يعنى وصاهم بالكلمة وهى « لا اله الا الله » وكذلك وصاهم يعقوب . « يا بنى ! ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن الا وانتم مسلمون » يعنى فلاتموتن الا وانتم متمسكون بالمـلة ، وبالكلمة، «لا اله الا الله» .. وقوله « قالوا نعبـد الهك ، واله آبائك ، ابراهيم ، واسـماعيل ، واسحق، الها واحدا ، ونحن له مسلمون» يعنى أيضا الاسلام الأول .

وقال تعالى فى ذلك « واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى

وبرسولى ، قالوا آمنا ! وأشهد بأننا مسلمون . » فاســـــلامهم هنا مطابق للايمان ، وهو ما وقع به الأذن بالوحى .فأن الله انما أوحى اليهم أن يؤمنوا .. فلما آمنوا وقالوا « آمنا » وقع لهم ان هـــــذا الايمان اسلام وكذلك قالوا « واشهد بأننا مسلمون » والعارف يسمع اجابة القدس اياهم فى فحوى : « قل لم تسلموا ولكن قولوا آمنا » . لم يسلموا الاســـــلام الأخير .. أعنى درجة البداية منه .. وانما اسلموا الاسلام الأول .

ونحن انما جزمنا بأن اسلام كل هؤلاء هو الاسلام الأول لأن أدنى مراتب الأسلام الأخير الخروج عن الشريعة الجماعية والدخول فى الشريعة الفردية ، وذلك بأتقان العمل بالشريعة الجمـــاعية حتى يحسن الفرد التصرف فى الحرية الفردية المطلقة . فالاسلام الأخير مرتبة فرديات .. والفردية لا تتحقق لأحد وهو منقسم على نفسه ، فلابد له من اعادة الوحدة الى بنيته ، فلايكون العقل الواعى فى تعارض وتضاد مع العقل الباطن ، وبفض التعارض بينهما تتم سلامة القلب ، وصفاء الفكر ، وجمال الجسم ، فتتحقق حياة الفكر ، وحياة الشعور .. وهذه هى الحياة العليا .. « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » فالحيوان هنا ضد الموتان ، وهى الحياة الكاملة ، غير المؤوفة بالنقص ، ولا بالمرض ، ولا بالموت .

واعادة الوحدة الى البنية تعنى أن الانســـان يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول .. وهذا هو مطلوب الاســـــلام ، وذلك حيث يقول « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ * كبر مقتا عند الله أن تقـــولوا ما لا تفعـــلون . »

المجتمع الصالح

ولا يبلغ أحد هذا المبلغ الرفيع من الحياة الا بوسيلتين أثنتين : أولاهما وسيلة المجتمع الصالح ، وثانيتهما المنهاج التربوى العلمى الذى يواصل به مجهوده الفردى ليتم له تحرير مواهبه الطبيعية من الخوف الموروث .

والمجتمع الصالح هو المجتمع الذى يقوم على ثلاث مساويات : المساواة الاقتصادية ، وتسمى فى المجتمع الحديث الاشتراكية ، وتعنى أن يكون الناس شركاء فى خيرات الأرض . والمساواة السياسية ، وتسمى فى المجتمع الحديث الديمقراطية ، وتعنى أن يكون الناس شركاء فى تولى السلطة التى تقوم على تنفيذ مطالب حياتهم اليومية . ثم المساواة الاجتماعية ، وهذه ، الى حد ما ، نتيجة للمساويين السابقتين ، ومظهرها الجلى محو الطبقات ، واسقاط الفوارق التى تقوم على اللون ، أو العقيدة ، أو العنصر ، أو الجنس ، من رجل ، وامرأة . فأنه يجب ألا يكون هناك تمييز بين الأفراد يقوم على أى اعتبار من هذه الاعتبارات . فالناس لايتفاضلون الابالعقل ، والخلق . ومحك ذلك العدل فى السيرة بين الناس ، والنصح ، والأخلاص للمواطنين ، فى السر والعلن ، وروح الخدمة العامة ، فى كل وقت ، وبكل سبيل .

والمساواة الاجتماعية تستهدف محو الطبقات ، ومحو الفوارق بين المدن والأرياف ، وذلك بأتاحة الفرص المتساوية للتثقيف ، والتمدين ، حتى يكون التزاوج بين جميع الأفراد فى المجتمع أمرا عاديا .. وهذا هو المحك الصادق فى مبلغ المساواة الاجتماعية ..

والمجتمع الصالح ، بعدأن يقوم على هذه المساويات الثلاث ، التى يتكفل القانون بتنظيمها ، ورعايتها ، يقوم أيضا على رأى عام سمح لا يضيق بأنماط السلوك المختلفة ، لدى النماذج البشرية المتباينة ، ما دام هذا السلوك لا يعود الا بالخير والبركة على المجتمع .

وللرأى العام أحكام تصدر من وراء حكم القانون ، وهى غير ملزمة لأحد ، ولا منفذة بسلطة ، ولكنها قد تكون ، مع ذلك ، أكثر فعالية من القانون ، فى ردع الشواذ والمارقين . ويمكن للرأى العام بالطبع ، أن يصدر حكمه على أى سلوك لا يوافق عليه ، ولكن يجب تجنب العنف فى أحداث أى تغيير فى ذلك ، فأن العنف لا يبعث الا احدى خصلتين: أما العنف ممن يطيقون المقاومة ، أو النفاق من العاجزين عنها ، وليس فى أيهما خير .. ثم ، لدى الضرورة ، يمكن لأحكام الرأى العام ، والعرف الجماعى ، ان تدخل حرم القانون ، وذلك باقتراح التشريعات التى تسد النقص الذى بدا لمن شاء ، وبالطبع لن تكون التشريعات غير دستورية ، ودستورية القانون عندنا معروفة ..

المساواة الاقتصادية : الاشتراكية

ليس هذا المقام مقام التفصيل فى أمر الاشتراكية ، فان لها سفرا سيخرج للناس قريبا ، ان شاء الله ، باسم « الاسلام ديمقراطى اشتراكى » .

والاشتراكية تعنى ان يكون الناس شركاء فى خيرات الأرض ، وهى قد بدأت منذ أن بدأ المجتمع ، فانها صنو الرأسمالية . وكانت الرأسمالية ، ممثلة فى الملكية ، هى النظام الذى نشأ عليه المجتمع ، ولقد تطورت الرأسماليه الى أن وصلت معناها العلمى الحاضر ، وكذلك

تطورت الاشتراكية ، وانما كان تطورها أبطأ من تطور الرأسمالية لأن الرأسمالية تعتبر مقدمة طبيعية لها ، ولا يمكن للاشتراكية أن تسبق الرأسماليه • ثم ان الاشتراكية نتيجة حكم القانون الذى يرعى حق الضعيف ، فى حين ان الرأسمالية نتيجة قانون الغابة الذى يعطى الحق للاقوياء ، ويتقاضاه لهم ، وبطبيعة النشأة ، فان قانون الغابة مرحلة سابقة لمرحلة قانون العدل ، والمرحمة ••

ولقد ظهرت الاشتراكية فى جرثومتها البدائية فى صورة الحسد ، أو الغبطة التى تعتمل فى صدر « الماعندهم ضد العندهم » • فقد كان محسودا الذى يوفق الى سلاح حجرى يمتاز بالخفة ، والقوة ، والحدة • والذى يوفق الى كهف حصين ، وفسيح ، والذى يوفق الى زوجة جميلة ، ومحبة ، ومطيعة ، وقوية ، وهكذا • ولقد دفع هذا الحسد الى الصراع التاريخى بين « ألماعندهم والعندهم » • ولا يزال هذا الصراع محتدما ، ولن ينفك ، حتى تتم المساواة المطلقة بين الناس فى خيرات الأرض ••

وقبل أن تظهر الاشتراكية العلمية نتيجة لهذا الصراع الطويل المرير كانت الاشتراكية فى مرحلتها البدائية ، وهذه تعنى المشاركة فى الخيرات التى لاتضبق بأحد ، ولا يقع عليها الحوز • ولقد عبر المعصوم عن هذه حين قال «الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » • وفى هذا الحديث اشارة رصينة الى وجوب الاشتراكية بين الناس حين يمكن أن تفيض الخيرات باستغلال الموارد الطبيعية والصناعية •

وانما دخلت الاشتراكية فى الطور العلمى مؤخرا ، وبرزت ، واستحوذت على اهتمام الناس ، واصبحت فى أيامنا هذه يدعيها الذين يعنونها ، والذين لايعنونها ، وذلك لفرط تعلق الشعوب بها •

ولقد بدأ فى أوائل القرن التاسع عشر استخدام اصطلاحى « الاشتراكية » و « الشيوعية » فى كل ما له صلة بفكرة الملكية العامة للعقار .. وقد استخدم اصطلاح « الاشتراكية » فى انجلترا فى حوالى عام ١٨٢٠ ، ولأول مرة ، بواسطة روبرت أوين ، وهو صانع ثرى ، ويعتبر مؤسس الاشتراكية الحديثة . ولقد كان يؤمن بامكان تحقيق التحسين الاجتماعى عن طريق الوسائل الاختيارية ، والدستورية الوئيدة ، والمستقرة ، التى تجنب الشعوب الشرور التى تسير فى ركاب التغييرات الثورية العنيفة ، وبخاصة السيئة الاعداد منها .

وكلمة « الشيوعية » مشتقة من كلمة لاتينية معناها « عام » أو « مملوك للجميع » . ولقد استخدمت فى أول الأمر حوالى عام ١٨٣٥ بواسطة الجمعيات الثورية السرية الفرنسية التى كانت ترمى الى قلب الطبقة الوسطى بالعنف ، ثم السيطرة على فرنسا ، بهدف انشاء اقتصاد يكون فيه جميع المتاع المنتج مملوكا للشعب ، وتكون فيه طبقة العمال هى العنصر الحاكم .

ودخل كارل ماركس فى الصورة ، وأخذ يدرس ويرصد ويطور أفكاره على أساس النظريات ، والتطبيقات الاشتراكية ، والشيوعية المختلفة ، ولقد فضل اصطلاح « الشيوعية » ، فاختاره ليصف به أفكاره ، لأن هذا الاصطلاح كان مرتبطا بفكرة تغيير المجتمع بالعنف . وكان ماركس يقيم مذهبه على أربعة مبادىء : —

١ — مجرى التاريخ تتحكم فيه القوى الاقتصادية .
٢ — التاريخ ماهو الا سجل لحرب الطبقات .
٣ — الحكومة ما هى الا أداة تستخدمها طبقة فى اضطهاد طبقة أخرى .

٤ ــ العنف والقوة هما الوســـيلتان الوحيدتان لتحقيق أى تغيير أســـاسى فى المجتمـع .

وعلى هـذه المبادىء ، ووفاء بها ، ظل ماركس ، منـذ كتاباته الأولى ، يهاجم بألحاح التجارب الاشتراكية، كالتى كان يرعاها روبرت أوين ، ويصفها بأنها غير علمية ، وغير واقعية ، لأن التاريخ ، كماهو واضح فى رأيه ، قد سار على قوانين علمية قاســـية ، وأن تغييرا اجتماعيا جوهريا بغير طريق القوة والعنف لا يمكن أن يتم .. ولهذا فقد سخر باعتقاد أوين وغيره من الاشتراكيين بامكان اصلاح اجتماعى عن طريق الزمالة ، والتعاون ، والتطور الوئيد . وكان يسمى عملهم هذا الاشتراكية « المثلى » ويهتم كثيرا بالتفريق بينها وبين مذهبه هو، ويسميه الاشتراكية « العلمية » أو « الشيوعية » . ونحـن عندما نتحدث عن الاشتراكية العلمية ، أو عن الشيوعية ، فيما ندعو اليه ، لا نريد مذهب ماركس هذا ، بل انا لنعلم ان اشتراكية ماركس ليست علمية ، وانماهى متورطة فى خطأ أســـاسى ، ليس هذا المقام مقام الخوض فيه ، وانما سنخوض فى تبيانه عند الكتابة عن « الاســـلام ديمقراطى اشتراكى » الذى سيصدر عما قريب ان شاء الله .

فالاشتراكية العلمية ، عندنا ، تقوم على دعامتين اثنتين ، وفى آن واحد : أولاهما زيادة الانتاج ، من مصـــادر الانتاج ، وهى المعدن ، والزراعة ، والصناعة ، والحيوان . وذلك باستخدام الآلة ، والعلم ، وبتجويد الخبرة الادارية ، والفنية . وثانيتهما عدالة التوزيع ، وهى تعنى ، فى مرحلة الاشتراكية ، أن يكون هناك حد أعلى لدخول الأفراد، وحد أدنى . على أن يكون الحد الأدنى مكفولا لجميع المواطنين ، بما فى ذلك الأطفال ، والعجائز ، والعاجزين عن الانتاج ، وعلى أن يكون

كافيا ليعيش المواطن فى مستواه معيشة تحفظ عليه كرامته البشرية .. وأما الحد الأعلى للدخـــول فيشـــترط فيه الا يكون اكبر من الحد الأدنى بأضعاف كثيرة حتى لا يخـــلق طبقة عليا تستنكف أن تتزاوج مع الطبقة ذات الدخول الدنيا .. ومن أجل زيادة الانتاج وجب تحريم ملكية مصادر الانتاج ، ووســـائل الانتاج ، على الفرد الواحد ، أو الأفراد القلائل فى صورة شركة ، سواء كانت شركة انتاج ، أو شركة توزيع .. ولا يحـــل للمـــواطن أن يملك ، ملكا فرديا ، الا المنزل ، والحديقة حوله ، والأثاثات داخله ، والسيارة ، وما الى ذلك مما لا يتعدى الى استخدام مواطن استخداما يستغل فيه عرقه لزيادة دخل مواطن آخر . والملكية الفردية ، حتى فى هذه الحدود الضيقة ، يجب **ألا تكون ملكية عين للأشياء المملوكة** ، وانمـــا هى ملكية ارتفاق بها ، وتظل عينها مملوكة لله ثم للجماعة بأسرها .

ثم انه كلما زاد الانتاج من مصادر الانتاج اتجهت عدالة التوزيع الى الاتقان ، وتقريب الفوارق ، وذلك برفع الحد الأدنى ، وبرفع الحد الأعلى، على السواء.. ولكن رفع الحد الأدنى يكون نسبيا أكبر من رفع الحد الأعلى ، وذلك بغية تحقيق المساواة المطلقة . وعند تحقيق المســـاواة المطلقة بفضل الله ، ثم بفضل وفرة الانتاج ، تتحقق الشيوعية ، وهى تعنى شيوع خيرات الأرض بين الناس .. فالشيوعية انما تختلف عن الاشتراكية اختلاف مقدار .. فكأن الاشتراكية انماهى طور مرحلى نحو الشـــــيوعية .

ولقد عاش المعصـــوم الشيوعية فى قمتها حين كانت شريعته فى مستوى آية الزكاة الكبرى « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ولقد فسر العفو بما يزيد عن الحـــاجة الحاضرة . وحديثه عن الأشعريين فى مستوى الشيوعية ، وذلك حين قال « كان الأشعريون اذا أملقوا ،

أو كانوا على سفر ، فرشوا ثوبا ، فوضعوا عليه ماعندهم من زاد ، فاقتسموه بالسوية ، أولئك قوم أنا منهم وهم منى » وهـذا هو فهم الأمة المسلمة التى لما تجىء بعد .. ولقد أدرك هـذا الفهم أصحابنا الصوفية وذلك حين تصوروا جميع الأرض ، وما عليها من خـيرات ، كمائدة أنزلها الله على عباده ، وأمرهم أن يرتفقوا منها بزاد المسافر ، ويواصلوا سيرهم اليه .. فهذه الأرض ، مثلها عندهم مثل المائدة ، وضعت للآكلين ، وعليها اللحم ، والخبز ، والخضـار ، والحلوى ، وجلس اليها عشرة رجال ، فان كل ما عليها هـو على الشيوع بينهم ، ولاتقع تلك الملكية الفردية لقطعة لحم منها ، الا حين تحتويها أصابعك ، وتبدأ رحلتها الى فمك .

وحين يحدثنا القرآن عن الجنة « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجـر العاملين» انما عنى أيضا النموذج المصغر للجنة الكبرى ، الذى يتحقق فى هذه الأرض التى نعيش عليها اليوم وذلك حين « تملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » على حد التعبير النبوى الكريم . وهو ما داعب خيال ماركس وضل الطريق اليه كل الضلال ، ولن يبلغه الا المسلمون الذين لما يأتوا بعد .. وحين يأتون سيتحقق فى الأرض طرف من قوله تعالى « ان المتقين فى جنات وعيون * أدخلوها بسلام آمنين * ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، أخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » وهذا الطرف هو الشيوعية التى يحققها الاسلام بمجىء أمة المسلمين ، ويومئذ تشرق الأرض بنور ربها ، وتتم نعمة الله على سكانها ، ويحل فى ربوعها السلام ، وتنتصر المحبة .

المساواة السياسية : الديمقراطية

ولن نتحدث عن الديمقراطية بتطويل هنا ، فان موعدنا بذلك السفر الذى سيخرج باسم « الاسلام ديمقراطى اشتراكى » فكما ان الاشتراكية هى ثمرة النزاع الطويل بين « العندهم والما عندهم » فى الصعيد المادى ، فان الديمقراطية هى أيضا نتيجة الصراع بين « العندهم والما عندهم » فى الصعيد السياسى ، وهى تبتغى أن يكون الناس شركاء فى السلطة ، كماهم شركاء فى خيرات الأرض . والديمقراطية صنو الاشتراكية .. وهما معا يمثلان جناحى المجتمع .. فكما أن الطائر لا يستقل فى الهواء على جناح واحد ، فكذلك المجتمع ، لا يستقل بغير جناحين من ديمقراطية واشتراكية . ولقد ظهرت الديمقراطية قبل الاشتراكية ، ذلك لأن الاشتراكية تحتاج الى وعى جماعى أكثر مما تحتاجه الديمقراطية التى قد تقوم فى بدايتها على قلة من المثقفين .. ثم ان الاشتراكية تحتاج ، كمقدمة لها ، الى الرأسمالية النامية الغنية .. وهى أيضا وليدة الآلة ، فلم يكن من الممكن أن تتقدمها .. ولم تجىء الآلة الا مؤخرا .. هذا الحديث يعنى الاشتراكية العلمية .. أما الاشتراكية الساذجة ، البدائية ، فأن نشأتها بعيدة فى التاريخ ..

ولدت الديمقراطية فى بلاد الاغريق ، وفى أثينا بالذات . وقد كانت أثينا أرقى مدن الاغريق ثقافة . وكانت كل مدينة من تلك المدن حكومة قائمة بذاتها .. ولما كانت الدول الاغريقية التى تمثلها المدن صغيرة فقد كان من السهل على الشعب أن يمارس الحكم مباشرة عن طريق اجتماع أفراده ، وكانت ديمقراطيتهم بذلك الديمقراطية المباشرة

التى لا تحتاج الى مجلس نيابى ، ولا الى مجلس تنفيذى ، على النحو الذى عرف مؤخرا ، وهى لم تكن تقوم على موظفين دائمين ، وانما كان الموظفون ينتخبون كل عام .. وكثيرا ما كان الانتخاب يجرى بالاقتراع ، وكان أهل أثينا يعتقدون أن الاشتراك فى مناقشة ، وسياسة الشئون العامة ، حق لكل مواطن ، وواجب عليه ، (لم يكونوا يعتبرون النساء والعبيد من المواطنين) ، وكان بركليس أعظم الخطباء المتكلمين باسم الديمقراطية الأثينية ، وفى خطابه المعروف باسم خطبة الجنازة ، التى ألقاها فى مناسبة الاحتفال الشعبى بدفن الذين قتلوا فى الحرب ضد اسبارطه عام ٤٣٠ قبل الميلاد ، قال فى تصوير هذه الديمقراطية : « انما تسمى حكومتنا ديمقراطية لأنها فى أيدى الكثرة دون القلة وان قوانيننا لتكفل المساواة فى العدالة للجميع، فى منازعاتهم الخاصة ، كما أن الرأى العام عندنا يرحب بالموهبة ويكرمها فى كل عمل يتحقق ، لا لأى سبب طائفى ، ولكن على أسس من التفوق فحسب ، ثم أننا نتيح فرصة مطلقة للجميع فى حياتنا العامة ، فنحن نعمل بالروح ذاتها فى علاقاتنا اليومية فيما بيننا . ولا يوغرنا ضد جارنا أن يفعل ما يحلو له ولا نوجه اليه نظرات محنقة ، قد لاتضطر ، ولكنها غير مستحبة » .

« ونحن نلتزم بحدود القانون أشد التزام فى تصرفاتنا العامة ، وان كنا صرحاء ودودين فى علاقاتنا الخاصة . فنحن ندرك قيود التوقير : نطيع رجال الحكم والقوانين ، لا سيما تلك القوانين التى تحمى المظلوم ، والقوانين غير المكتوبة التى يجلب انتهاكها عارا غير منكور . ومع ذلك فأن مدينتنا لا تفرض علينا العمل وحده طيلة اليوم. فما من مدينة أخرى توفر ما نوفره من أسباب الترويح للنفس — من مباريات وقرابين على مدار السنة ، ومن جمال فى بيئتنا العامة ، يشرح

الصدر ، ويسر العين ، يوما بعد يوم ، وفوق هذا فأن هذه المدينة من الكبر والقوة بحيث تتدفق عليها ثروة العالم باسره ، ومن ثم فان منتجاتنا المحلية لم تعد مألوفة لدينا أكثر من منتجات الدول الاخرى ٠ »

« اننا نحب الجمال دون اسراف ، والحكمة فى غير تجرد من الشجاعة والشهامة ، ونحن نستخدم الثروة ، لا كوسيلة للغرور والمباهاة ، وانما كفرصة لأداء الخدمات ٠ وليس الاعتراف بالفقر عيبا ، انما العيب هو القعود عن أى جهد للتغلب عليه ٠ »

« وما من مواطن أثينى يهمل الشئون العامة لأغراقه فى الانصراف الى شئونه الخاصة ٠ والشخص الذى لايعنى بالشئون العامة لانعتبره « هادئا وادعا » وانما نعتبره غير ذى نفع ٠ »

« واذا كانت قلة منا هم الذين يرسمون أية سياسة ، فانا جميعا قضاة صالحون للحكم على هذه السياسة ٠ وفى رأينا أن أكبر معوق للعمل ، هو نقص المعلومات الوافية — التى تكتسب من النقاش قبل الاقدام — وليس النقاش ذاته » ٠ هذا ما قاله بركليس فى تصوير الديمقراطية الأثينية وهو تصوير طيب ٠٠ ولقد أخذت الديمقراطية من أيام أثينا تنمو وتتطور وتتباين فى ذلك فى مختلف أرجاء العالم ، ولكنها تتبع فى كل مكان من مبادىء تحاول أن تبينها بوضوح كنهج متميز وفذ من مناهج الحياة ٠٠ نهج للحياة يعترف بكرامة الانسان ، ويحاول أن يقيم تصريف الشئون الانسانية وفق العدل ، والحق ، وقبول الشعب ٠٠ ولقد وصلت مرحلة تطوير الديمقراطية الحديثة الى مبادىء يمكن تلخيص أهمها فيما يلى : —

١ — الاعتراف بالمساواة الاساسية بين الناس ٠

٢ ــ قيمة الفرد فوق قيمة الدولة .
٣ ــ الحكومة خادمة الشعب .
٤ ــ حكم القانون .
٥ ــ الاسترشاد بالعقل ، والتجربة ، والخبرة .
٦ ــ حكم الأغلبية ، مع تقديس حقوق الأقلية .
٧ ــ الاجراءات أو الوسائل الديمقراطية تستخدم لتحقيق الغايات فى الدولة الديمقراطية .

فليست الاجراءات ولا الأجهزة الديمقراطية غاية فى ذاتها ، وانما هى وسيلة الى غاية وراءها .. فليست الديمقراطية أن تكون لنا هيئة تشريعية ، وهيئة تنفيذية ، وهيئة قضائية ، وانما جميع أولئك وسائل لتحقيق كرامة الانسان .. فان الديمقراطية ليست أسلوب حكم فحسب ، وانما هى منهاج حياة ، الفرد البشرى فيه غاية ، وكل ماعداه وسيلة اليه ، ولا يجد أسلوب الحكم الديمقراطى الكرامة التى يجدها عند الناس الا من كونه أمثل أسلوب لتحقيق كرامة الانسان .

وفى النهج الديمقراطى الحاضر خطأ هو أقل من الخطأ الذى تورطت فيه الشيوعية الماركسية بكثير ، ولكنا رغم ذلك لن نسترسل فى استقصائه هنا وانما نتركه الى حينه فى سفر « الاسلام ديمقراطى اشتراكى » .

وانما تجىء كرامة الانسان من كونه أقدر الاحياء على التعلم والترقى ، وانما تجىء كرامة الديمقراطية من كونها ، كأسلوب للحكم أقدر الاساليب لاتاحة الفرص للانسان ليبلغ منازل كرامته وشرفه ، وانما يتعلم الانسان من اخطائه ، وتلك هى الطريقة المثلى للتعليم .. ففى الدكتاتورية تمنع الحكومة الفرد

من أن يجرب ، أو يعمل بنفسه ، وبذلك تعطل نموه الفكرى والعاطفى والخلقى ، لان كل أولئك انما يتوقف نموه على ممارسة العمل ، وتحمل مسئولية الخطأ فى القول ، وفى العمل ، ثم التعلم من الخطأ .. وعلى العكس من الديكتاتورية ، نجد أن الديمقراطية قائمة على الحق فى ارتكاب الاخطاء ، وهذا ليس معناه الرغبة فى الخطأ من أجل الخطأ ، وانما اعترافا بأن الحرية توجب الاختيار بين السبل المختلفة للعمل . ولا يمكن للانسان أن يكون ديمقراطيا حقا دون أن يتعلم كيف يختار ، وان يحسن الاختيار فى ذلك ، وان يصحح ، باستمرار ، خطأ الاختيار الذى يبدو منه الفينة بعد الفينة . وفى واقع الأمر فان السلوك جميعه ، وممارسة الحرية برمتها ، انما هى سلسلة من التصرف الفردى فى الاختيار والتنفيذ .. أو قل فى حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية العمل .. على شرط واحد هو ان الانسان يتحمل نتيجة خطئه فى القول ، وفى العمل ، وفق قانون دستورى .

فالديمقراطية هى حق الخطأ .. وفى قمة هذا التعريف جاء حديث المعصوم « ان لم تخطئوا وتستغفروا فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم . »

ومن كرامة الانسان عند الله أن الحرية الفردية لم يجعل عليها وصيا ، حتى ولو كان هذا الوصى هو النبى على رفعة خلقه وكمال سجاياه . فقد قال تعالى فى ذلك « فذكر انما انت مذكر * لست عليهم بمسيطر » ، والمعنيون هنا هم المشركون ، الذين رفضوا عبادة الله ، وعكفوا على الأصنام ، يعبدونها ، ويتقربون اليها بالقرابين ، والمنهى عن السيطرة عليهم هو الرسول محمد ، الذى لم يرد علوا فى الأرض ،

والذى قال تعالى عنه « وانك لعلى خلق عظيم » .. من هـذا نأخذ أنه ليس هناك رجل هو من الكمال بحيث يؤتمن على حريات الآخرين . وان ثمن الحرية الفردية هو دوام السهر الفردى عليها .. وفى الحق ان الحرية الفردية حق أسـاسى يقابله واجب هو حسن التصرف فى ممارستها . ولما كان مجتمع المؤمنين قاصرا عن الارتفاع الى ممارسة الحرية الفردية فى الاختيار والعمل فقد جعل النبى وصـيا عليهم ليعدهم لتحمل مسئولية الحرية الفردية المطلقة ، وهو أثناء وصايته عليهم يصر على اعطائهم حق الخطأ ، كلما وسعه ذلك ، من غير أن يشق عليهم أو يعنتهم .. فهو بذلك انما يعدهم لممارسة الديمقراطية حين يقوى عودهم ، ويستحصد عقلهم .. وبذلك أمر الله حين قال « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .

وهذه آية الشورى ، والشورى ، حيث وردت ، سواء فى هـذه الآية ، أو فى قوله تعالى « والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون» فليست آية ديمقراطية، وانما هى آية تنزلت من آية الديمقراطية لتعد الناس ليسـتأهلوا الديمقراطية ، حين يجىء أوانها ..

فالشورى ليست أصلا ، وانما هى فرع ، وهى ليست ديمقراطية، وانما هى حكم الفرد الرشيد الذى يعد الأمة لتصبح ديمقراطية .. والأصل فى الديمقراطية آيتا « فذكر انما أنت مذكر * لسـت عليهم بمسيطـر » .

وبنفس هذا القدر ، الزكاة ذات المقادير ليست اشتراكية ، وانما

هى رأسمالية .. وآيتها « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، ان صلاتك سكن لهم » ليست أصلا ، وانما هى فرع . والغرض وراءها اعداد الناس نفسيا ، وماديا ليكونوا اشتراكيين ، حين يجيء أوان الاشتراكية .. والآية الأصل ، التى تنزلت منها آية الزكاة ذات المقادير ، هى قوله تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ولقد أسلفنا الاشارة الى ذلك .

ولما كانت الرسالة الثانية تقوم على الارتفاع من الآيات الفرعية الى الآيات التى هى أصل ، والتى جرى منها التنزل الى الفروع لملابسة الزمان ، ولملاءمة طاقة المجتمع ، المادية ، والبشرية ، فقد وجب الارتفاع بالتشريع ، وذلك بتطويره ليقوم على آيات الاصول ، وكذلك يدخل عهد الاشتراكية ، وعهد الديمقراطية . وينفتح الطريق الى تحقيق الحرية الفردية المطلقة بالممارسة فى مستوى العبادة ، ومستوى المعاملة . وهذه هى شريعة المسلمين .. شريعة الأمة المسلمة التى لما تأت بعد ، وقد أصبحت الأرض تتهيأ لمجيئها .. فعلى أهل القرآن أن يمهدوا طريقهم ، وأن يجعلوا مجيئهم ممكنا ، وميسرا ، وهذا ما من أجله كتب هذا الكتاب .

المساواة الاجتماعية : محو الطبقات والفوارق

هذه أصعب المساويات تحقيقا ، وتعتبر المساواة الاقتصادية ، والمساواة السياسية مقدمة لها ، وهى تتويج لهما ، وخلاصة ، وقمة .

وهى لم تتحقق للانسانية الى يوم الناس هذا ، ولن تتحقق فى المستقبل الا بالجهد الشاق ، والتربية ، والتعليم ، لتصحيح ، وتغيير ماهو كالطبيعى فى المسلك الانسانى . وهى بذلك أرقى انتاج المدنية فى جميع العصور . اذ المدنية ان هى الا محاولة تبعد الانسان عن نزعاته

الحيوانية الدنيئة ، وتقوده الى مستوى أعلى من الخلق ، حيث يستبدل قانون الغابة ــ قانون العنف ، والسيطرة بالقوة ــ بقانون العدل ، والحق ، والمرحمة ــ فيدخل بذلك التحسين فى نوع العلاقات البشرية ، فيحل الرضا محل القوة ، والعدالة محل الاستغلال ، والحرية محل الكبت ، والعاطفة لمتسامية بالعقل القوى ، محل العاطفة الناضبة .

وشأننا مع هذه المساواة فى هذا الكتاب شأننا مع سابقتيها وهو ارجاء الاستقصاء الى موعده من كتاب «الاسلام ديمقراطى اشتراكى» حيث نبحثها بحثا مستفيضا ولكن لابد من الاشارة اليها هنا بما يحتمله المقام من تطويل .

موضوع المساواة الاجتماعية هو الفرد البشرى ، كما كان الأمر فى شأن المساواة الاقتصادية ، والمساواة السياسية .. فأن الفرد البشرى ، كما سبقت الاشارة الى ذلك مرات ، هو الغاية وراء كل سعى جماعى .. هو غاية وسيلتها الاسلام والقرآن، وهما أعظم الوسائل المنهجية على الاطلاق . ووسيلته أيضا المجتمع ، وهو أعلى ما انتجته الانسانية الى اليوم . والفرد الذى هو غاية هو الفرد البشرى ، من حيث هو بشرى .. هتى وان كان أحمق .. فأنه يجب أن لا يجعل وسيلة الى شىء سواه .. ومن أجل ذلك وجب الا تقوم بين الأفراد فوارق من جراء المولد ، أو العنصر ، أو اللون ، أو العقيدة ، أو الجنس من الذكورة والأنوثة . قال تعالى فى ذلك : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » قوله « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » يعنى انما تكون الكرامة بالعلم والخلق .. فان التقوى علم وعمل بمقتضى العلم ، والى ذلك الأشارة بقوله تعالى « ان الله عليم خبير » .. « عليم » اشارة الى العلم ..

« خبير » اشـــارة الى التصرف بالعلم • وقال المعصـــــوم « الناس لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » •

وعدم التمييز الاجتماعى ضـــد الضعيف ، ومحو الفوارق التى قامت على قانون الغابة بين الأفراد والطبقات هو عمل التمدين الأكيد ، فاذا وجدت مجتمعا للضعفاء فيه حق محفوظ ، وكرامة مرعية ، واذا وجدت مجتمعا للنساء فيه حرية ، وحرمة ، وتشريف ، وللاطفال فيه حقوق ، وله بهم عناية ، وعليهم رحمة ، ولهم فيه محبة ، فاعلم أنه مجتمع متمدن ، ومتحضر •

والاسرة هى المجتمع الأول ، وفيها تعلم ، ولايزال يتعـــلم ، الفرد النظام ، والســـــلوك الاجتماعى النظيف ، واحترام القانون ، وتوقير السلطة ، والتعاطف ، والتسامح ، والمحبة •• ولا تزال للاسرة مقدرتها الفائقة على تربية الأفـــراد التربية التى تكون بعيدة الأثر ، على حياتهم الفردية ، وحياتهم فى مجتمعهم الصغير ، وفى مجتمعهم الكبير ، حين يبرزون اليهما ، وعمـــاد الأسرة الأم ، وهى ملكة المملكة الصغيرة ، ولكن مع شديد الأسف فأن الاعتراف بها لم يتفق للاسرة البشرية الى اليوم • فأنها كانت ، ولا تزال ، مضطهدة • وكان ، ولا يزال ، دورها فى بيتها دور الخادمة •• ولهذا الوضع سود العواقب على تنشئة الأطفال ، مما يترك عميق الأثر فى حياة المجتمع برمته وفى جميع مســـــتوياته •

ولقد أسلفنا القول فى هذا الكتاب عن أمر المساواة المطلقة بين الرجال والنساء مما لا نحتاج الى اعادته فى هذا الموضع ، ولكن لا بد

من الاشارة الى أن أمر المساواة الاجتماعية لا يجيء عفوا ، وكأمر طبيعى للتطور • بل لابد فيه من التخطيط ، والتطوير الذكى للمجتمع، ذلك بأنه يحتاج الى تعـــليم ، ويحتاج الى تربية •• والتعليم غير التربية ، فأن غرض التعليم اكساب الفرد الخبرة المهنية التى تجعله مفيدا للمجتمع فى الميدان الذى خلق وهو مستعد له بما ركز فى فطرته من موهبة •• وهو ضرورى ليسلح الأفراد بالقدرات العلمية ، والفنية، والادارية ، والتكنولوجية ، لتنمية حضارة مجتمعهم ، وللتسامى بها فى مراقى الكفاءة والكفاية • وفى التعليم يقع التخصص ، ويقع التمييز ، ويســـود الاتجاه الى التخطيط لانجاب حاجة المجتمع ــ فيه يقع التمييز بين الرجال ، والنساء ، ويقع التمييز بين الرجال ، والرجـال أيضا ، ذلك بأنه انما يرمى الى تنمية ، وتغذية الموهبة عند كل موهوب ، حتى يخدم مجتمعه فى الميدان الذى خلق وهو مستعد له استعداداً فطرياً، بيد ان هذا التمييز الذى يقع فى ميادين الاعـداد لخدمة المجتمـع المدنية لا يحمل معه أى امتياز اجتماعى ترتفع به ، تلقائيا ، مكانة فرد فوق فرد آخر •• وفى هذه النظرة ، التى تتجه الى أعداد المواطنين أعدادا مهنيا بواسطة برامج التعليم الموجه ، قيمة المـرأة غير قيمة الرجل ، ولكنها قيمة مساوية لقيمته •• بمعنى ان المرأة ، حين تعـد لتكون أماً ، بأن تعلم كل ما يؤهلها لهذه الوظيفة الحيوية المتشعبة ، لا تقل خدمتها للمجتمع ، فى نظر المجتمع ، عن خدمة أخيها الذى يعد ليكون مهندســـا ، أو طبيبا ، أو مشرعا •• وليس لأعداد الأمومة الصالحة حد تقف عنده ، فان الفتاة كلما علمت كلما زادت كفاءتها فى ميدان الأمومة نفسها •• ومن أجل مصلحة المجتمع يجب أن يعلم كل فرد عملا يتقنه باليد وبالعقل ، وهو كذلك من مصلحة الفرد نفســه ،

لأن الانسان لاتنضج قيمه الفكرية ، ولا قيمه الخلقية ، الا اذا كان يحب العمل اليدوى ، ويتقن طرفا منه اتقانا حسنا ، ذلك بأن الترقى جميعه انما هو علم ، وعمل بمقتضى العلم .. قال تعالى فى ذلك « اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه . » كل هذه المسائل تدخل فى غرض التعليم ..

وأما غرض التربية فهو تحرير المواهب الطبيعية : العقل ، والقلب ، من أسر الأوهام ، والأباطيل .. فبسلامة القلب من الخوف ، وصفاء الفكر من الأوهام ، تتحقق حياة الفكر ، وحياة الشعور ، وهى غاية كل حى .. وهى مهمة التربية .. وللتربية وظائف كثيرة هى فى جملتها نقل الانسان من الاستيحاش الى الاستيناس ، حيث تصبح عاداته جميعها انسانية ، ومهذبة .. فهو يأكل بطريقة انسانية ، ويشرب بطريقة انسانية ، وينام ، ويجلس ، ويتحدث ، ويتصرف فى جميع شئونه ، العامة والخاصة ، بطريقة انسانية ومهذبة ، فلا يعرض مباذله ، ولا يبدر منه ما يؤذى السمع ، ولا البصر ، ولا العقل ، ولا القلب .. وهو لايبصق فى الأماكن العامة النظيفة ، ولا يتبول ، ولا يتغوط ، فى الأماكن العامة . ولا يرمى الأوساخ ، والقاذورات ، فى الأماكن النظيفة على الطرقات . وهو ، على العموم ، يحاول ، بجهد الطاقة ، أن يترك كل شىء على صورة أحسن من التى وجده عليها .. ويجب أن يعده لكل أولئك التربية .. التربية فى المدارس ، وفى النوادى ، وفى الأماكن العامة ، حيث يجرى التثقيف ، والتعليم ، للشعب ، كل حين ، وبغير انقطاع ، وبكل وسائل الاعلام التى تستطيع الدولة أن توفرها ، من اذاعة ، وتلفزيون ، وسينما ، ومسرح ، وصحافة ، وكتب ، ومجلات ، ومحاضرات ، وأنواع التسجيل المختلفة ، لأنواع الفنون المختلفة ، حيث توجه الدولة كل امكانات المجتمع

لانجاب الأفراد الناضجين ، وذلك بتوخى النهج التربوى السليم .. فان مشاكل المجتمعات كون أغلبية الأفراد أما مراهقين ، أو أطفالا .. ويقل فيها الأفراد الناضجـــون الذين يقوون على مواجهة الحقيقة ، (والأطفال يتابعون مبدأ اللهو ، وهو مبدأ يجعل الانســـان يتصرف مدفوعا بأهوائه ورغباته ، ويحاول أن يحقق أية رغبة عند ظهورها ، دون أن يوازن بين رغبة وأخرى وينفذها ، ويقترن الجرى وراء هذا اللهو الوقتى المباشر بتجنب ما قد يسبب الفشل ، أو الألم ، أو الأنكار، ومسلك كهذا ينشأ من الفشـــل فى التمييز بين الرغبات المتنازعة على أساس معقول طويل المدى . وغالبا ما يحل التمنى محل ما هو محتمل أو مرغوب فيه) وليس هناك مخرج الا عن طريق التربية .. والتربية، بخلاف التعليم ، لا يقـــع فيها التخصص ، ولا التمييز بين الرجـــال والنساء ، وانما هى حق أساسى لكل فرد بشرى ، وهى تشمـــل حتى الأطفال ، ولا تحد الا بطاقاتهم على التلقى ، والادراك ، والتنفيذ . ولقد تحدثنا عن أسلوب الاسلام فى التربية فيما سلف من هذا الكتاب مما لاموجب لاعادته ههنا .

والقاعدة الذهبية فى التربية هى أن تضع الأفراد أمام المسئولية وأن تعينهم ، بكل الوسائل ، على تحمل المسئولية ، ذلك بأن غـــرض التربية هو انجـــاب الأفراد الناضجين .. هو انجاب الرجال ، مـــن الأطفال ، ومن المـــــراهقين ، الذين تعج بهم المجتمعات عجيجـــا .. والفارق بين الأطفال والمراهقين ، وبين الرجال هو أن الرجال يتصرفون بحرية ، ويتحملون مســـــئولية تصرفهم ، بينما الأطفال والمراهقون يتركون التصرف خوف المسئولية ، أو يتصرفون ويحاولون الهروب ، تحت الظلام ، من مسئولية تصرفهم .

خـــاتمة

أما بعد فان فيصل القول فى أمر الرسالة الأولى ، والرســـالة الثانية ، هو أن للدين شكلا هرميا قمته عند الله ، حيث لاعند ، وقاعدته عند الناس .. « ان الدين عند الله الاسلام » ، ولقد تنزلت هــذه القاعدة مــن تلك القمة .. تنزلت الى واقــع الناس ، وحــاجتهم وطاقتهم البشرية ، والمادية ، فكانت الشريعة .. وستظل قمة هــرم الاسلام فوق مستوى التحقيق، فى الأبد ، وفى ما بعد الأبد ، وسيظل الأفراد يتطورون فى فهم الدين ، كلما علموا المزيد من آيات الآفاق ، وآيات النفوس . والله تبارك وتعالى يقول « سنريهم آياتنا فى الآفاق، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ » ويقول « ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شــاء » وهو تبارك وتعالى يشاء لنا الزيادة من علمه كل لحظة ، وفى ذلك يقول « كل يوم هو فى شأن » وما شأنه الا ابداء ذاته لخلقه ليعرفوه .. وهو تبارك وتعالى يعلمنا فى ذلك فيقول « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدنى علما » وما الزيادة فى العلم الاترق من قاعدة الهرم نحو قمته فى تطور مستمر .. وحين يتطور الانسان بفهم الدين ، فى فهم الدين ، يطور شريعته ، تبعــا لحاجته ولطاقته ، من القاعدة الغليظة الى قاعدة أقل غلظة ..

فالأفــراد يتطورون فى فهم الدين فيدخلون فى مراتب الشرائع الفردية ، والمجتمعات تتطور ، تبعا لتطور الأفراد ، فترتفع شرائعها من قاعدة غليظة الى قاعدة أقل غلظة .. وذلك صعدا فى سلم هــرم قاعدته شريعة الرسالة الأولى ..

فاذا كانت قمة هـــرم الدين ، فيما يختص بالمــال ، هى آية

« يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » فان قاعدته هى آية « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، ان صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم » ، وعليها قامت شريعة الرسالة الأولى فى الزكاة ذات المقادير ، وجعلت شريعة فى المال ، وركنا فى العبادة ، وذلك لأن الناس لم يكونوا يطيقون أفضل منها ، وترك أمر تحقيق قمة الهرم للأفراد ، كل حسب طاقته ، وورد الترغيب فى التسامى فى قول المعصوم حين قال « فى المال حق غير الزكاة » وورد فى قوله تعالى حين قال « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وذلك لأن شريعته هو فى المال ، وركنه فى العبادة ، هو أقرب الى القمة ..

واذا كانت قمة هرم الدين ، فيما يختص بالسياسة ، هى آيتا « فذكر انما انت مذكر * لست عليهم بمسيطر » فان قريبا من قاعدته آية الشورى « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً ، غليظ القلب ، لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » وقاعدته على الاطلاق هى آية السيف « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم » .

وعلى هذه القاعدة قامت شريعة الجهاد ، وعلى آية الشورى قامت شريعة الحكم ، على أساس وصاية الفرد الرشيد على المجموعة ..

فقاعدة الهرم فى هذه ليست ديمقراطية . وانما هى أقرب ماتكون الى الديمقراطية ، فى وقت لم تكن الديمقراطية قد عرفت ، ولم يكن المجتمع مستعدا لممارستها .

وقاعدة الهرم فى تلك ليست اشتراكية ، وانما هى أقرب ماتكون الى الاشتراكية ، فى وقت لم تكن الاشتراكية ، بمضمونها العلمى ، قد عرفت ، ولم يكن المجتمع مستعدا لممارستها ..

فاذا كانت البشرية ، فى مدى أربعة عشر قرنا قد قطعت أرضا شاسعة نحو النضج ، واصبحت تستقبل عهد الرجولة ، وتستدبر عهد الطفولة .. واصبحت ، بفضل الله ، ثم بفضل هذا النضج ، تطيق ، ماديا وفكريا ، الاشتراكية والديمقراطية ، فقد وجب ان تبشر بالاسلام على مستواهما ، وهذا يعنى الارتفاع من قاعدة شريعة الرسالة الأولى الغليظة الى قاعدة أقل غلظة ، ترتفع هونا ما نحو القمة ، وستظل القمة دائما فى منطقة الفرديات .. وأدنى منازل القاعدة الجديدة هى المدخل على الاشتراكية ، وذلك بتحريم تمليك وسائل الانتاج ، ومصادر الانتاج ، على الفرد الواحد ، أو الافراد القليلين فى صورة شراكة .. فأن هذا يفتح أبواب التشريع على الاشتراكية ..

وأدنى منازل القاعدة الجديدة هى المدخل على الديمقراطية وذلك بوجوب حق الانتخاب لكل مواطن ، ولكل مواطنة ، بلغ وبلغت سنا ، معينة مثلا ، وكذلك حق الترشيح .. فأن هذا يفتح أبواب التشريع على الديمقراطية .

وهذا الصنيع هو ما يسمى بتطوير التشريع .. فهو ارتفاع ، من نص فرعى ، يستلهم أكثرما يمكن من التسامى نحو نص أصلى .. هو ارتفاع من نص الى نص .

وهناك تشريع متداخل بين الرسالة الأولى والرسالة الثانية

كتشريع العبادات ، وهذا لايدخل فيه ، من التطوير ، الا ما يجعل قمته مفتوحة على منازل الشرائع الفردية ، لكل فرد تسامى ، بفضل الله ، ثم بفضل اتقان التقليد ، الى تحقيق فرديته التى ينماز بها عن أفـــراد القطيـــع .

فالشريعة الجماعية ليست أصلا ، وانما الأصل الشريعة الفردية، ذلك ، وبنفس القدر الذى به الجماعة ليست أصلا ، وانما الأصـــــل الفرد .. ولكن الناس لكثرة ما ألفوا المعيشة فى الجماعة ، ولشـــدة أثر غـــريزة القطيع عليهم ، ظنوا الأمـــر بعكس ذلك . فانت تراهم يستغربون ، ويستوحشـــــون عندما تكلمهم عن الشرائع الفردية . ولأمر آخـــر أيضـــا ، فان الشريعة الفردية مرتبة رجولة ، ومـــرتبة مسئولية . والناس لا يزالون أطفالا ، يحبون أن يحمل غيرهم عنهـــم مسئوليتهم ، ويطيب لهم أن يظلوا غير مسئولين .. أو هم ان احتملوا المسئولية فانما يحتملونها فى القطيع ، وعلى الطريق المطروق . أما أن يكون المسئول وترا ، وان يطرق طريقا بكرا ، فانه أمر مخيف ، ولا يجد فى النفوس استعدادا ، ولا ميلا .

والمدخل على الرسالة الثانية الرسالة الأولى . الا مايقع عليه التطوير من تشريعها .. ولايقع التطوير فى أمر العبادات الا على الزكاة ذات المقادير ، وما ذاك الا لأنها ليست ركنا تعبديا الا لعلة ان الناس لم يكونوا يطيقون أفضل منها ، والا فأن الركن التعبدى انما هو زكاة المعصوم . ولا يقع التطوير على تشريع المعاوضة ، وما ذاك الا لأنه أصيل ، وقد بنى على الأصول الثوابت من الدين . وانما يقع التطوير فى تشريع المعاملات ، كالحقوق الأســـــاسية للافراد ، وكالنظم

الاقتصادية والسياسية ، الى آخر ما يرتبط بتحولات المجتمع ، وما يسرع اليه التغيير من هذه النظم التى يجب أن تواكب المجتمع فى حيوية، واقتدار على التجدد ، والنمو ، والتطور ، وقد سبقت الى كل أولئك الاشـــــارة فى هذا الكتاب .

فالأصل فى الرسالة الثانية الحيوية والتطور ، والتجدد ، وعلى السالك فى مراقيها أن يجدد حياة فكره ، وحياة شعوره كل يوم ، بل كل لحظة ، مـــن كل يوم ، وكل ليلة .. مثله الأعلى فى ذلك قـــول الله تبارك وتعالى فى شأن نفسه « كل يوم هو فى شأن » ثم هو « لا يشغله شـــأن عن شـــأن » .

فهو حين يدخل من مدخل شهادة « ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله » يجاهد ليرقى باتقان تقليد المعصوم الى مرتبة « فأعلم أنه لا اله الا الله » ثم يجاهد باتقان هذا التقليد حتى يرقى بشـــــهادة التوحيد الى مرتبة يتخلى فيها عن الشهادة ، ولا يرى الا أن الشاهد هو المشهود ، ويطالع بقوله تعالى « شهـــد الله أنه لا اله الا هـــو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائما بالقســـــط ، لا اله الا هو ، العـــزيز الحكيم » وعندئذ يقف على الأعتاب ، ويخاطب كفاحا ، بغير حجاب « قل الله ! ثم ذرهم فى خـــوضهم يلعبون » ، و « قل » هنا تعنـــى « كن » وههنا مقام الشرائع الفردية . وحين يرقى السالك فى مدارج الرسالة الثانية من مدخل الرسالة الأولى على النحو الذى بينا يكون قد قطع درجات السلم السباعى ، من درجة الاسلام ، الى الايمان ، الى الاحسان ، الى علم اليقين ، الى عين اليقين ، الى حق اليقين ، الى الاسلام من جديد ، ثم يبدأ من جديد ، على مستوى جديد ، دورته الجديدة ، وهكذا دواليك .

ان الاسلام ســـــلم لولبى ، أوله عندنا فى الشريعة الجماعية ، وآخره عند الله ، حيث لا عند ، وحيث لا حيث .. والراقى فى هــذا السلم لا ينفك فى صعود الى الله « ذى المعارج » فهو فى كل لحظة يزيد علمه ، ويزيد ، تبعا لذلك ، اسلامه لله . وتتجدد بكل أولئك حـــياة فكره ، وحياة شعوره .. ودخول العارج ، فى هذه المراقى ، على مرتبة الشريعة الفردية ، أمر محتم ، وليس هو بالمقام البعيد المنال ، وانما محك الكمال ، الذى تقطع دونه الأعناق ، هو أن تكون حقيقتك عند الله وأن تكون شريعتك الفردية طرفا من حقيقتك هذه . وهيهات !! هيهات !! . فان ذلك سير فى الاطلاق .. وليس فى هذا القول مثالية ، لأنه ، فى طرفه العملى ، قد تنزل الى أرض الناس ، وأخذ يشدهم الى المطلق ، على تفاوت فى التحصيل بينهم ، كل حسب مبلغه من العلم . فهم فى سلم صاعد ، عدد درجاته بعد الأنفس ، ، و « فوق كل ذى علم عليم » الى أن ينتهى العلم الى « علام الغيوب » .

ان هذا يعنى أن حظ الانســـــان من الكمال لا يحده حد ، على الاطلاق . موعود الانسان من الكمال مرتبة الاله . ومــع ذلك فان النهج الى تحقيقه لا يقوم على المثالية ، وانما يقــوم على الواقعية الملموسة فى مسلك العبادة ، وفى مسلك المعاملة ، وقد سلفت الى كل أولئك التفاصيل .. وبحسب الانسان أن الله قد ادخر له من كمــال حياة الفكر ، وحياة الشعور ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

لك الحمد اللهم كما انت أهله ، حمدا كثيرا ، طيبا ، مباركا فيه .

الفهرست

	الصفحة
الاهـــداء	٢
مقدمة الطبعة الرابعة	٣
مقدمة الطبعة الثالثة	١٢
توطئة البحـــث	١٨
الباب الاول	
المدنية والحضـــارة	٢١
هل المدنية هى الأخـــلاق	٢١
المدنية الغـــربية	٢٣
فشـــل المدنية الغربية	٢٤
الباب الثانى	
الفرد والجماعة فى التفكير الفلسفى	٢٨
الفرد والكون فى التفكير الفلسفى	٣٢
الباب الثالث	
الفرد والجماعة فى الأســـلام	٣٦
الحـــرية الفردية المطلقة	٣٨
الشريعة فى خدمة الحرية الفردية المطلقة	٤٢
الفرد والكون فى الأســـلام	٥٣
الأرادة	٥٦
الجبر والأختيـــار	٦٢
القـــرآن والجبر والأختيار	٦٥
القـــرآن والتســـــير	٦٧
التســـير ما هـــو ؟	٦٩
المغفـــرة لآدم	٧٨
كيف غفـــر لآدم ؟	٨٣
التســـير خير مطلق	٨٥
القضـــاء والقدر	٨٩
الخـــلاصة	٩٣

الباب الرابع

الصفحة

الاســـلام	٩٥
الثالوث الأســلامى	١٠١

الباب الخامس

الرســالة الأولى	١٠٨
أمــة المــؤمنين	١١٦
الجهاد ليس أصــلا فى الأسلام	١١٨
الرق ليس أصلا فى الأســلام	١٢٤
الرأســمالية ليست أصلا فى الأسلام	١٢٥
عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس اصلا فى الأسلام	١٢٦
تعدد الزوجات ليس أصلا فى الأسلام	١٢٧
الطلاق ليس أصلا فى الأسلام	١٢٩
الحجاب ليس أصلا فى الأسلام	١٣١
المجتمع المنعزل رجاله عن نسائه ليس أصلا فى الأسلام	١٣٣

الباب السادس

الرســالة الثانية	١٣٤
المســلمون	١٣٩
المجتمــع الصـــالح	١٤٢
المســاواة الأقتصــادية : الاشتراكية	١٤٣
المســاواة السياســية : الديمقراطية	١٤٩
المســاواة الاجتماعية	١٥٥
خــاتمة	١٦١

من أجل البعث الاسلامى

من أجل استيعاب فكرة البعث الاسلامى هذه نوصى ، بالاضــافة الى قراءة هذا الكتاب ، بقراءة الكتب الآتية : ــ

ــ رسالة الصلاة ــ الاســلام ــ لا اله الا الله ــ طريق محمد .

قراءة طريق محمد تمامها بالعمل به ((من عمل بما عــلم أورثه الله علم مالم يعــلم)) ..

هـــذا الكتاب

« ان الاسلام رسالتان : رســـالة أولى قامت على فروع القرآن ، ورسالة ثانية تقوم على اصوله .. ولقد وقع التفصيل على الرســـالة الأولى .. ولاتزال الرسالة الثانية تنتظر التفصيل .. وسيتفق لها ذلك حين يجيء رجلها ، وحين تجيء امتها وذلك مجيء ليس منه بد .. « كان على ربك حتما مقضيا » »..

هـــذا الكتاب

« من الخطأ الشنيع ان يظن انسان ان الشريعة الاسلامية فى القرن الســـابع تصلح بكل تفاصيلها ، للتطبيق فى القرن العشرين ، ذلك بان اختلاف مســـتوى مجتمع القرن السابع ، عن مستوى مجتمع القـــرن العشرين ، أمر لا يعبل المقارنة ، ولا يحتاج العارف ليفصل فيه تفصيلا ، وانما هو يتحدث عن نفسه فيصبح الامر عندنا امام احدى خصلتين : اما ان يكون الأسلام ، كما جاء به المعصوم بين دفتى المصحف ، قادراً على استيعاب طاقات مجتمع القرن العشرين فيتولى توجيهه فى مضمار التشريع وفى مضمار الاخلاق ، واما ان تكون قدرته قد نفدت وتوقفت عند حد تنظيم مجتمع القرن السابع ، والمجتمعات التى تليه مماهى مثله ، فيكون على بشرية القرن العشرين ان تخرج عنه ، وان تلتمس حـــل مشـــاكلها فى فلسفات اخريات ، وهذا ما لا يقول به مسلم .. ومع ذلك فان المسلمين غير واعين بضرورة تطوير الشريعة » ..

هـــذا الكتاب

المسلمون يقولون ان الشريعة الأسلامية كاملة .. وهذا صحيح .. ولكن كمالها أنما هو فى مقدرتها على التطور ، وعلى استيعاب طاقات الحياة ، الفردية ، والاجتماعية ، وعلى توجيه تلك الحياة فى مدارج الرقى المستمر ، بالغة ما بلغت تلك الحياة الاجتماعية ، والفردية من النشاط ، والحيوية ، والتجديد ..

السودان – ام درمان – ص . ب – ١١٥١

الثمن : ١٠٠ قرشا